الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جـامعة الأمير عبد القادر للعلوم
الإسلامية –قسنطينة–

كلية الآداب و الحضارة الإسلامية
قسم اللغة العربية

دروس في الأدب الجزائري الحديث

مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: أدب عربي حديث و معاصر

إعداد الدكتور

رياض بن الشيخ الحسين

السنة الجامعية: 2022/2021

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة:

هذه دروس في مـادة الأدب الجزائري الحديث في شقه الشعري، هي ثمرة جهد موجه لإفادة طلبة السنـة الأولى ماستر، تخصص الأدب العربي الحديث و المعاصر، و مساعدتهم في الإلمام بالمعلومات المتناثرة في طيات الكتب العلمية و ثنايا الدراسات و البحوث الأكاديمية المتخصصة، في موضوع المادة بصفة مباشرة، أو ضمن المراجع القريبة، التي تخدم الموضوع بطريقة غير مباشرة، لاسيما و أن الخزانة الأدبية الجزائرية تفتقر إلى المراجع المتعلقة بالأدب الجزائري، و تعاني ندرة إما بسبب نفادها من السوق، أو قلة وجودها في مواقع و مراكز البحث، فالقصد منها إذا، هو تقريب المعلومة للطالب و تسهيل الحصول عليها، بأسلوب أدبي و علمي ميسر، يراعي المستوى التكويـني، و يحرص على تحبيب المادة، و معايشة اللحظة الإبداعية، و الدفقة الشعورية لراهنيـة التجربـة الجزائرية، و معايشة الأحداث التي رافقتها.

احتـوى هذا المنجـز على مجموعـة من الدروس تبتدئ بالتأصيل و التأسيس للشعر الجزائري الحديث –دون نشره –من خـلال تحديد مصـادره التي تشرب منها الشاعر مادة شعره، فحاولنا في هذه الحيثية التركيز على أهم المصادر و المرجعيات، المشكلة لخلفية الشاعر المعرفية، التي يستند عليها إنتاجه الشعري كالكتب و التراجم و عيون الشعر، و مفهومه للشعر، و البيئة التي ينتمي إليها... و غيرها.

ثم أعقب ذلك ربط راهن القصيدة الجزائرية الحديثة بما سبقها من إنتاج شعري، بالوقوف عند أهم المحطات التي مرت بها التجربة الشعرية الجزائرية قبل النهضة، و المرور بأهم حلقة فيها و هي القصيدة الأميرية بعد أن وضعنا الطالب صوب تحديد مفهوم الحداثة في الشعر الجزائري الحديث، قصد تمكينه من أخذ فكرة كافية على ماسبق إنتـاجه من نـاحية، و لتتكون لديه نظرة واعية، تربط بين الماضي و الحاضر من ناحية أخرى، فكان لزاما علينا أن نفرد الحديث عن حالة الشعر في القرن التاسع عشر الميلادي (19م) من خلال رصد بعض النماذج الشعرية لتكون شاهدا على هذا العصر.

ثم نأتي إلى واقع الشعر في مرحلة نهضته (في القرن العشرين) بالتركيز على بداياته التي اعتمدت على الجهود العصامية و المحاولات الفردية، ثم ارتقت إلى جهود جماعية منظمة تؤمها ثقافة و توجه موحد، تشهد فيها التجربة نبوغا هاما، يشي بنمو الذائقة الشعرية الجزائرية، و انفتاحها على عالم الإبداع الذي فتح على مصراعيه و النهل من ينابيع شتى شرقية و غربية، و متابعة هذا التطور من خلال النمذجة لبعض الشعراء الذين بلغوا مستوى رفيعا من العطاء.

و كنتـيجة لنمو المستوى العلمي و الثقافي، لدى شعراء الحقبة المدروسة في كثير من العلوم المرتبطة بالشعر و بـاللغـة العربـيـة، و الاطـلاع و المعـايشة لجديد القصيدة العربية، تبرز اتجاهات الشعراء في التعاطي مع الشعر و إنتاجه، من خلال مفاهيمه المتعددة القديمة و الجديدة، فيطفو على سطح الفضاء الشعري الجزائري تعدد التـذوق بـتـعـدد المـشـارب، و لذلـك وجـب عليـنـا الوقـوف عنـد أهم التيارات الشعرية التي برزت بشيء من التفصيل، و التعرض لنصوص بعض الشعراء لكل تيار، و إبراز أهم المميزات و الظواهر الفنية التي تميز كل تيار على حدة، ويجدر أن أشير في هذه المقدمة، أن المطبوعة اشتملت على الدروس الخاصة بالشعر فقط، على اعتبار أنها تشكل الجزء الأول من المطبوعة، سيليها الجزء الثاني الخاص بدروس النثر .

و الله من وراء القصد و الهادي إلى سواء السبيل.

قسنطينة في 2021/10/10

د. رياض بن الشيخ الحسين

مصـادر الشعر الجزائري الحديث

نحتاج لتناول الشعر الجزائري الحديث الوقوف عند بعض المحطات التمهيدية التي لابد منها، لأنها ستضعنا في البداية، في مواجهة لب الموضوع من خلال التعرف على بدهياته أو أدواته، التي ستمكننا من الإحاطة به بتتبع خيوط نسجه و التعمق في تفاصيله، و إدراك طبيعته، و أظننا بدءا في حاجة إلى التعرف على المصادر أو المرجعيات الفكرية و الثقافية و الاجتماعية التي يمتح الشاعر الجزائري الحديث مادة شعره منها، فتكون باعثا لإنتاجه الشعري و شحنه، وصقل تجربته و معاناته الذاتية و الشعرية، فقد يكون المصدر الذي يستمد الشاعر منه قوة إبداعه و أواره الفني أمهات الأعمال و عيون الشعر التي يقبل عليها الشعراء قراءة و دراسة، و نعني بذلك كتب التراجم و النقد و الموسوعات و المعاجم المشكلة للتراث القومي إن كانت عربية، أو للتراث العالمي إن كانت لأقوام آخرين، و قد يكون المصدر هو رؤية الشاعر ذاته لمفهوم الشعر، و بين هذا المصدر و المصدر السابق علاقة تكاملية، فبمفهوم الشعر يتحدد توجه الشاعر الفكري و المعرفي، و يتحدد المنهل الذي ينهل منه علومه و معارفه و يشكل رصيده الثقافي، و موقفه من الحياة، و على أساسه تنوعت المذاهب و الأذواق و اختلفت الاتجاهات الأدبية منذ القديم، و يمكن أن نظيف مصدرا آخر له حضور معتبر في تكوين الشاعرية عند كل شاعر، ألا و هو البيئة التي ينتمي إليها و يمارس فيها حياته رفقة جمع من الناس يشاركهم همومهم و يتقاسم معهم آمالهم و آلامهم، أفراحهم و أتراحهم، فالبيئة عنصر نافذ في تشكيل التجربة الشعرية، و هي جزء مهم في ذاكرة و مخيلة الشاعر، حاضرا فيها دائم الحضور أو غائبا عنها لضرورة اضطرته لذلك.

و يمكننا أن نحدد معالم الشعر الجزائري الحديث من خلال التركيز على أهم المصادر التي أسهمت في تكوين التجربة لدى الشعراء الجزائريين فهي كالآتي:

1. التركيبة السوسيولوجية للمجتمع الجزائري:

الحديث عن مكونات المجتمع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي أمر ضروري، لأن الملامح المشكلة للواقع الاجتماعي التي عرف بها المجتمع قبل مجيء الاحتلال، خضعت لكثير من التشويه و الطمس، فالمستعمر عندما احتل الجزائر كان أول هدف له لإحكام قبضته على البلاد، هو إعادة بناء و تشكيل العلاقات الاجتماعية وفق منظوره الاستعماري، و سخر لتنفيذ مشروعه الاستدماري ما امتلكه من قوة فكرية و مادية، لكن هذا الأمر لم يكن سهلا، لأن الرصيد الديني و المعرفي اللذين كانا يغذيان الشعب الجزائري في علاقته بوطنه و بمقوماته الشخصية، عقد مهمة الاحتلال، و كان يحول دون ذلك، لكن محاولات التأثير المتكررة، تحت وقع الضربات النفسية بالاغراء

حينا، و بالتهديد أحيانا أخرى، من خلال تحطيم البنية التحتية، مكنته من إدخال عناصر جديدة أحدثت خلخلة نفسية في بناء العلاقات التي عرف بها المجتمع من قبل، و تبدلت معها بعض طبائعه التي عهد بها، مثل كره الدخيل و عدم الخضوع، كما هو معروف في تاريخ الجزائر منذ القديم[1]. كما أن الشعب الجزائري شعب طامح، يهفو دائما إلى تغيير ذاته و يتطلع إلى تطوره. و لكن ينبغي لنا أن نتساءل من سيقود حركة التغيير في المجتمع الجزائري، و يسهر على وضع و إرساء قواعد بناء مشروع المجتمع، الذي يطمح الجزائريون إلى إنشائه؟ طبعا لن يقدر على تحمل هذه الأعباء إلا النخبة المثقفة من أبناء هذا الشعب، التي تمتلك رصيدا عاليا من الفكر و الثقافة و الاطلاع الكافي على تجارب الأمم السابقة، و تنطلق من مرجعية إيديولوجية و سياسية و اجتماعية معينة، و من ثمة فالمواقف التي ستصدر عن هذه الفئة تجاه المشكلات و القضايا التي يفرزها الحراك الاجتماعي، ستكون حتما انعكاسا لاتجاهها الفكري و السياسي، و سينجر عن ذلك دورها في التعاطي مع العلاقات المستجدة، و الاسهام في تصميم مشروع مجتمع جزائري جديد، نعرف هذا من خلال تتبع تطور الوعي الوطني لديها، لأنه هو المعيار الذي ترتكز عليه في تحديد فعالية أو عدم فعالية هذه المواقف.

المتتبع للنشاط السياسي الوطني في الجزائر منذ مطلع القرن العشرين (1900) سيلاحظ التحرك نحو ميلاد عهد جديد، و الإعلان عن هبة النهضة الحديثة، ببروز حركات و أحزاب سياسية و اجتماعية، ضمت تركيبة بشرية معينة، من الفئات الاجتماعية المكونة للبنية الجديدة، يبدو هذا التحرك جليا من خلال مواجهة الشعب لمختلف القوانين الجائرة التي تصدرها الإدارة الفرنسية من حين لآخر، للضغط عليه مثل قانون الأهالي، التجنيد الإجباري، و الادماج... و غيرها من القوانين و الإجراءات التعسفية الاستبدادية التي نجمت عنها انتفاضات و أحداث دامية، تعبر عن الرفض و التمرد من ناحية، و ظهور الوعي القومي لدى كل الفئات الشعبية، و لاسيما الفئة المثقفة من ناحية أخرى، و في مواجهة هذا الواقع انقسمت هذه الفئات إلى جماعتين كبيرتين[2] هما:

1.1. جماعة المحافظين:

هي الكتلة التي تضم كل الفئات الجزائرية المؤيدة للإبقاء على الشريعة و النظام الإسلامي و التعليم باللغة العربية، و سيادة القيم الجزائرية العربية الأصيلة، و تهتم بالمطالبة بالمساواة في الحقوق السياسية و المدنية مع الفرنسيين، و إلغاء التجنيس و التجنيد العسكري و قانون الأهالي، و العودة إلى نظام القضاء الإسلامي و احترام التقاليد الجزائرية و إصلاح التعليم الأصلي و الالتفاف حول الجامعة الإسلامية، و إطلاق حرية التنقل و

[1]- محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ص18.

[2]- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، معهد البحوث و الدراسات العربية، القاهرة، مصر 1977، ج2، ص144.

الهجرة إلى الخارج خاصة إلى المشرق العربي، و تؤمن بضرورة تقدم المجتمع و الإصلاح على نهج الجامعة الإسلامية، الذي يضمن المحافظة على الهوية، و أهم عنصر ينضوي في هذه الفئات، هم العلماء المختصون في علوم الدين و الشريعة، و المثقفون الذين تلقوا تعليمهم و تكوينهم في المدارس القرآنية، و الجامعات و الجوامع العربية في المغرب و المشرق العربيين، بالإضافة إلى التعليم المتواضع بالمدارس الفرنسية الجزائرية، و من هؤلاء العلماء من عاصر أقطاب الإصلاح العربي و الإسلامي جمال الدين الأفغاني و محمد عبده و رشيد رضا، و يحسبون ضمن الجناح الذي جمع بين الثقافة العربية و الثقافة الفرنسية، و يدعون إلى إصلاح المجتمع بكافة الوسائل نذكر منهم: عبد القادر المجاوي، سعيد بن زكري، عبد الحليم بن سماية، المولود بن الموهوب و حمدان الونيسي[1]، و بعض علماء الجمعية.

2.1. جماعة النخبة:

هي جماعة منافسة للجماعة الأولى، تملك رصيدا معرفيا مصدره التعليم بالثانويات و الجامعات الفرنسية، مقتنعة بتفوقها العلمي و الفكري، و بوعيها بالذات و بالواجب نحو المجتمع، تدعو للتحضر و الانفتاح على العالم الغربي، نتيجة تشربها للفكر الغربي الذي مكنها من حسن استعمال العلم و العقل في تفسير الواقع، و في رؤيتها للتراث و العقيدة، و طموحها للقيام بدورها في شؤون بلادها، و انتشال المجتمع التقليدي من التخلف إلى التقدم منتهجة في ذلك فكرة التغيير حسب الأمر الواقع، ففرقت بين فرنسا الديموقراطية و فرنسا الاستبدادية، و تعترف بأن للاستعمار محاسن تحققت على الأرض مثل توفير الأمن و العمل و تغيير الذهنية و طريقة الحياة، و لها طروحات أخرى أهمها:

- تنظر إلى التعليم الفرنسي على أنه ضرورة للجزائريين.
- إلزام فرنسا بالتطبيق الحرفي و الفعلي لقانون الإدماج و التجنيس الكامل الذي يوحد الجزائر مع فرنسا و يضمن الحقوق السياسية.
- تشجيع و تيسير الزواج بين الجزائريين و الفرنسيين.
- إصلاح حال الفلاحين الجزائريين.

و وجود هذين الجماعتين الممثلتين لأغلب فئات المجتمع، المتباينتين من حيث المنطلقات و الأبعاد، أوجد رؤيتين مختلفتين و موقفين متباينين من الواقع الراهن، و تصور كليهما لطرق علاجه و مجابهته، لكنهما بالنسبة لنا كدارسين، هما كتلتان هامتان تعتبران القلب النابض بالحيوية و العقل المنتعش، الذي يلقى على عاتقه عبء التفكير

[1]- المرجع السابق، ج2، ص146.

و البحث عن الحلول الناجعة لرسم مستقبل المجتمع الجزائري، لكننا لا ينبغي أن نغفل تأثير الطبقات الأخرى في رسم معالم المستقبل الذي يشارك في هندسته كل الأفراد، كل بطريقته الخاصة مثل فئة الإقطاعيين و فئة الفلاحين و فئة الطلبة الذين كانوا يدعون بالمحظوظين[1]، لكن هل سيتفق الجميع حول تحديد شكل مشروع المجتمع موحد رغم اختلاف الطروحات و الأفكار؟

بعد مرور فترة من زمن الاحتلال تيقن الكثير من الفئات على اختلاف مشاربها بأن نظرة الاستعمار للجزائري، مبنية على خلفية فكرية عدائية، مقصود بها كل الجزائريين[2]و لا فرق عنده بين المتمرد و المهادن، مما أدى إلى ميلاد تيار وطني يضم مختلف الأطياف السياسية و الحساسيات الفكرية، لم ينشأ إلا بعد احترام المواجهة بين الشعب الأكثر تضررا من الواقع الاستعماري، فقام بقيادة و تأطير المواجهة النظرية و الفعلية مع الدخيل، جامعا بين خياري المواجهة المسلحة، و الدعوة إلى الاستقلال و التحرر بواسطة التظاهر و التفاوض.

التيار الوطني الذي يحمل هذا التصور يفترض فيه أنه يتجاوز الصراعات التي قد تنشب بين الفئات الاجتماعية و يضعها جانبا، لأنه يعتبر المجتمع وحدة متماسكة لمواجهة عدو واحد. و على هذا الأساس عرف المجتمع الجزائري توترا اجتماعيا و سياسيا ابتداءا من فترة الثلاثينات، بعدما عاش فترة من الانكفاء و الانطواء و الخلود إلى الأرض، و الانزواء بعيدا عن مسرح الأحداث، و في هذا دلالة قوية على أن محاولات الاستعمار لتغيير البنية العميقة للكيان الجزائري فاشلة، بسبب تعلق الشعب بوطنيته و بأصالته و شخصيته، مثل الرد الصريح على احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر سنة 1930، بالاعلان عن ميلاد و تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، ثم تلته الكثير من الأحداث الدالة على الخروج من حالة الصمت و التردد، إلى حالة الرفض و التمرد، و كلما ازداد الجرح عمقا كلما ازدادت الروح الوطنية تعمقا و انتعاشا في ذهن الشعب، و كلما ازدادت نفوسهم توقا للثورة و الحرية، بوعي رفيع يتغذى من الألم و اليأس و التطلع إلى زمن الرحيل، و يزداد معه أيضا تأكد فرنسا يوما بعد يوم بأنها تراهن على جواد خاسر. لكن هذا الفشل لم يحل دون تعرض المجتمع لهدم و تحطيم بناه الأساسية الذاتية، و تدمير أوضاعه الأصلية.

---

[1]- المرجع السابق، ج2، ص161.

[2]- المرجع نفسه، ج3، ص55.

2. الوضع الاجتماعي:

نحبذ أن يكون الحديث عن الحالة الاجتماعية الجزائرية أثناء فترة الاحتلال، منبثقا من قول البشير الإبراهيمي حين قال: "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت و أسباب الموت. و الاستعمار سم يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، و هو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، و عبث بحرمة المعابد، و حارب الإيمان بالإلحاد، و الفضائل بحماية الرذائل، و التعليم بإفشاء الأمية، و البيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير و لا تفكير"[1]، و متكئا على شهادة شاهد من الفرنسيين أنفسهم الذين شاركوا في حكم الجزائر، و هو الحاكم العام فيوليت سنة 1927 حين راعه الوضع المزري للشعب بسبب ما مورس عليه من تفقير و تجهيل حيث قال: "إن الجزائريين متأخرون لأن شبابهم جهلاء مهملون، متأخرون، لأن آباء أولئك الشباب أفقرتهم الضرائب بأنواعها، و اليد الاستعمارية التي استحوذت على أراضيهم، متأخرون لأن غالب نواب الأمة، إن لم أقل كلهم عاجزون عن القيام بمأموريتهم. لأن الجزائريين محرومون من حرية التفكير و الاجتماع و الصحافة و المساواة، التي امتاز بها الأجنبي عنهم، و لأنهم حرموا حق النيابة الحرة، و لأن الأنديجينا خنقت أنفاسهم، أجل الجزائريون متأخرون لأنهم حرموا لا من حقوقهم فقط، بل من العيش الطليق الطبيعي لكل دابة على وجه الأرض"[2]، هذه صورة موجزة عن الواقع الاجتماعي الذي لم يكن بهذه الصفة قبل مجيء الاحتلال، الذي تعهد أول ما وطئت قدمه أرض الجزائر، باحترام الدين و شعائره و مؤسساته و حفظ ممتلكات الشعب، و سرعان ما انقلب على عقبيه فخالف كل وعوده، حين صادر كل الأوقاف و الممتلكات الخاصة، و أطلق أيادي المعمرين على أراضي الأهالي، بحجة أن أصحابها المغلوبين متخلفون غير مؤهلين للمساواة مع المستوطنين، و في أحسن الأحوال يقبلونهم كعمال أجراء فيها. و حولت الزراعة عن وجهتها من إنتاج الحبوب التي اشتهرت بها الجزائر، إلى زراعة الكروم المنتجة للخمور. و تحويل معظم المساجد إلى كنائس إعلانا عن محاربة الدين الإسلامي، و مسخه و تشويهه و إبعاده عن مقاصده الصحيحة، عندما تولى المستعمر تسيير إدارة شؤون المساجد و الأوقاف، و الإشراف على تعيين الأئمة، كما تولى شؤون القضاء، و أوصد الباب في وجه القضاء الشرعي الإسلامي ضاربا عرض الحائط الأحوال الشخصية الإسلامية، و في هذه الممارسات ما يشي بأن الحملة

[1]- هذا النص مأخوذ من كتاب صالح خرفي: المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1983، ص38.

[2]- المرجع نفسه، ص38-39.

العسكرية الموجهة نحو الشعب الجزائري الأعزل، كانت مدعومة بحملة تبشيرية[1]، يكون الهدف منها هو القضاء على كل الوشائج التي تصله بجذوره و بأصالته.

3. الوضع الثقافي:

تأثرت الثقافة بالوضع السياسي و الاجتماعي، لذلك تعثرت هي أيضا بتعثرهما، فبعد أن كانت بلاد الجزائر عامرة بالكتاتيب و الزوايا و المساجد، التي يأوي إليها النشء ليتلقى العلوم الشرعية و العربية. و بعد أن كان التعليم منتشرا بنسبة عالية تفوق الثمانين بالمائة (80%)، و اشتهر الكثير من العلماء في العديد من الاختصاصات و العلوم[2] مثل: الإمام المجتهد أبي زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي (ولد 786هـ - 1385م) في علم الحديث، العالم أحمد بن عيسى الحميري القسنطيني (ولد 813هـ - 1410م) في علم المنطق، أبي زكريا يحي بن أبي عمران المغيلي (توفي 883هـ - 1478م) في علم الفقه، الإمام أحمد بن يحي بن محمد الونشريشي (ولد 834هـ - 1428م) في علوم الشريعة و الأصول، الحافظ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني (توفي 900هـ - 1494م) في الأدب، بالإضافة إلى أسماء لامعة أخرى من العلماء الذين جمعوا بين العلوم أمثال محمد عبد الكريم المغيلي (توفي 909هـ - 1504م)، عبد الرحمن الأخضري (ولد 920هـ - 1514م)، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري (ولد 986هـ - 1578م)، عبد الكريم بن محمد الفكون (توفي 1073هـ - 1663م)، هؤلاء الذين تخرجوا من الحواضر العلمية التي كانت تنشر العلم و الفن مثل بجاية و قسنطينة و مدينة الجزائر و وهران و مازونة، لكن هذا العهد لم يكتب له الاستمرار فانطفأت هذه الشموع، بانطفاء جذوة العلم حينما أتى دمار الاحتلال فامتد إلى كل شيء، و لم يسلم منه شيء، فشاعت الأمية بنسبة مساوية لنسبة شيوع التعليم قبل الاحتلال أو تفوقها، و ضعف المستوى العلمي و الثقافي و الأدبي، و شاعت العجمة في التعبير و التركيب، و ساد اللسان الدارج و تغلب على اللسان العربي الفصيح، بسبب الاحتجاب القهري للمنشآت المعرفية. و إن ما أصاب الثقافة العربية الإسلامية، من انحسار و انكماش، بسبب القضاء الاستطاني المبرم على مخلفات الذاكرة التراثية و الإبداعية، و تهجير اللغة العربية من مرابعها، و إحلال لغة و ثقافة فرنسية محلها، بقصد تقريب المتعلمين و المثقفين الجدد من فرنسا، حتى يسهل ابتلاعهم و إدماجهم، فإن هذا القصد أيقظ الشعب من سباته، فأحدث صداما حضاريا عنيفا بين حضارتين فأوجب على الجزائري اتخاذ موقفا فاصلا في اختيار إحداهما، فكان رد فعله الوطني غير مسالم و لا مهادن، ففضل حضارته الأصلية رغم طريقها الشائك، فلاذ بها و ذاد عنها من التغريب و

[1]-محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص261-262.

[2]- المرجع نفسه، ص218-257.

الانهيار، "و لولا إيمان الأمة الجزائرية بعدالة السماء، و قوة عزمها على مقارعة الخطوب، و صلابة إرادتها في مقاومة المعتدين، و شدة تعلقها بتاريخها العريق الأصول، لعصفت بها صروف الدهر، التي تكالبت عليها طوال تاريخها شر عصف"[1]، و حري بنا أن نتساءل من هي الفئة أو الفئات التي قدر لها أن تحمل على عاتقها أعباء تغيير و إصلاح ما أفسدته صروف الدهر؟ و كيف يتمكن الجزائريون الذين سيمارس فيهم و بهم التغيير، من الحفاظ على مقاوماتهم الحضارية، و يتمكنون في الوقت ذاته من الأخذ بأسباب التحضر و التطور، كما عرفها العالم من قبلهم؟

[1]- عبد الملك مرتاض: المقومات العامة للأدب العربي الحديث في الجزائر، مجلة المجاهد الثقافي، ع1971/17، الجزائر، ص37.

حالة الشعر الجزائري خلال القرن التاسع عشر

1. تحديد زمن الحداثة:

قبل الحديث المفصل عن حالة الشعر الجزائري خلال القرن 19م، و نقصد بالضبط الفترة الممتدة من بداية الاحتلال الفرنسي إلى غاية نهاية القرن، يجب أن نحدد وضعية الشعر بالجزائر، بالنظر إلى صنوه بالمشرق العربي، على اعتبار أن الحركة الأدبية كانت موصولة ببعضها البعض في المغرب و المشرق، و كانت تتأثر هي أيضا بما تأثرت به الجوانب الأخرى و لاسيما الجانب الثقافي، و لا يستطيع أي دارس أن ينكر فضل المشرق على المغرب و خاصة الجزائر التي كان يتغذى شعراؤها من التجربة الشعرية المشرقية. و كما لا يخفى على الدارس أيضا أن حداثة الشعر العربي (نقصد الفترة الزمنية) ارتبطت بالنهضة التي شملت كافة مناحي الحياة و خاصة بعد ظهور الطباعة و الصحافة، و انتشار العلم و المعرفة و حركة الترجمة، التي أسهمت إسهاما واضحا في التواصل مع الإنتاج الفكري و الأدبي الغربي و التأثر به، و قد ربط بعض الدارسين ظهور هذه النهضة، بحملة نابليون على مصر سنة 1798م، و بقدر ما انفتحت البعثات العلمية على الثقافات غير العربية، و أخذت بأسباب تطورها، و وضعت اليد على أسباب التخلف الشرقي، بقدر ما انهمك رعيل آخر من المثقفين و الباحثين، في استلهام التراث العربي في عصور ازدهاره الأولى، من خلال إحياء أمهات الكتب العربية و عيون الشعر، و الاستفادة من عناصر القوة فيها، و معها بدأ الشعر العربي ينهض من وكدته، و يتجرد من أثواب ضعفه و هشاشته، بظهور مدرسة تقليدية قوية هي مدرسة الإحياء، التي تهتم بصياغة الأفكار و الأحاسيس في قوالب عربية قديمة، انطلاقا من إعجاب رواد هذا التوجه الأدبي بالنصوص الشعرية القديمة، و تعلقهم بها إلى حد التقديس، لأنهم يعتقدون بأنها نماذج لا غنى للمبدع من الرجوع إليها، و تقليد أبنيتها الفنية و المحافظة على هيكلها، و هذا كفيل بأن يعيد للغة العربية بريقها و للقصيدة زهوها و حسن سبكها و انبعاثها من جديد، و يتزعم هذه المدرسة محمود سامي البارودي (1839 – 1904)، الذي كان لإسمه دوي "في الأوساط الأدبية، و تجمع حوله عدد من الشعراء، مجدوا شعره، و بينوا ما فيه من حسن يذكر بالشعر الجاهلي و العباسي"[1]. و هنا يمكننا أن نتساءل هل التأريخ لحداثة الشعر المشرقي يرتبط به التأريخ حتما لحداثة الشعر الجزائري بناء على علاقة التأثير و التأثر السابقة؟ أم أن لكل منهما واقع تحديثه الخاص، و زمن تحديد بدايته الخاصة؟ هذا ما تضارب رأي الدارسين فيه حيث ذهب البعض إلى أن أصل البداية يرجع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين قرن هؤلاء إحياء الشعر

[1]- نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ص43.

الجزائري و الشروع في تحديثه، بشخصية الأمير عبد القادر (1807 – 1883)، الذي يعتبر هو أيضا رائدا من رواد حركة الإحياء و التجديد في المغرب العربي، و كل من البارودي و الأمير "متصل بالتراث الأدبي العربي عموما و الشعري خصوصا في عصوره الزاهية، يستوحيانه و يستمدانه في الإنشاد مع روح تجديدية متوثبة فكرة و شعورا و طريقة"[1]، في حين يرى بعض آخر بأن التحديث يبتدئ زمن ظهور الحركة الإصلاحية، فيرجح "أن حداثة الشعر الجزائري بالمفهوم الدقيق لكلمة حداثة، إنما بدأت معها لا قبلها"[2]، رغم اقتناع هؤلاء بأن جودة الشعر أو رداءته ليست لصيقة بفترة زمنية معينة دون أخرى، إنما الجمال و القبح وليدا عوامل سياسية أو اجتماعية أو معرفية تقود لبروزهما في أي لحظة من لحظات البوح و التداعي الإنساني. لكننا نميل إلى الرأي الثاني و نرجحه، لأننا نعتقد بأن بروز و نبوغ شخصية الأمير عبد القادر الجزائري الأدبية و الشعرية، لم تعكس بحق طبيعة المرحلة، لأن تألقه و فرادته لا يمكن أن تغطي مساحة عريضة من الإبداع، التي ساهمت فيها أقلام عديدة و قرائح متأججة، لم ترق إلى مستوى التعاطي الإحيائي و الإبداعي و الجمالي، الذي بلغه الأمير ممن عاصره من الشعراء و رافقوه على الخصوص مثل: محمد الشادلي القسنطيني و قدور بن رويلة من ناحية، و ارتداد الشعر إلى منزلته المتدنية، و إلى مسحة الضعف و الانحطاط التي كانت تميزه من قبل، بعد قضاء الأمير عبد القادر من ناحية أخرى.

2. حالة الشعر و روافده:

تأثر الشعر الجزائري أثناء الاحتلال بما تأثرت به البيئة الجزائرية التي نشأ فيها، حيث نجم عن ذلك جفاف و نضوب منابع القول الشعري "و تمنينا أن يسلك طريقا تؤدي به إلى ما عرفه من الازدهار من قبل، لكنه و يا للأسف، رجع إلى نكسته على الرغم من أنه ظل مسيطرا على موقفه مستميتا في حفظ كيانه. فلا نستطيع أن نعثر على أديب، يمثل حقا الحركة الأدبية بعد وفاة المقري[*]حتى القرن الثالث عشر هجري"[3]. فإذا افترضنا أن البيئة الجزائرية و الحياة الاجتماعية و الثقافية فيها، ستزدهر و تتطور بتوفر وسائلهما التي أحضرت مع الحملة الفرنسية مثلما وقع في مصر، بيد أننا لم نعثر على ذلك، و الذي حدث هو العكس تماما، لأن هدف الحملتين مختلف بينهما، و من ثمة فإنه لا يمكن بحال أن تتزامن نهضة العلوم و الآداب في الوطن العربي (المشرق) مع النهضة

---

[1]– عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث– تأريخا..و أنواعا، و قضايا..و أعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص15.

[2]– محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث– إتجاهاته و خصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص15.

[*]– هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري نسبة إلى مقرة ولاية المسيلة ولد بتلمسان سنة (986هـ – 1578م)، درس القرآن و العلوم على يد مشايخه بالمنطقة و ارتحل في طلب المزيد إلى فاس و القاهرة و الحجاز و دمشق و تفرد بعلم الحديث حتى لقب بحافظ المغرب، له كتابان مشهوران هما: أزهار الرياض، نفح الطيب يحتويان على ثروة أدبية ممتعة، توفي سنة (1041هـ – 1632م).

[3]– محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص264–265.

في الجزائر لاختلاف حيثيات و معطيات كل منهما، و ما أحوج المجتمع الجزائري في تلك الفترة لمن يدعمه و يأخذ بيده نحو اليقظة، و ينقذه من التخلف الذي خيم عليه، و لكي ندرك واقع الشعر الجزائري إبان القرن 19، و نعرف ما كان يتميز به من ضعف و ضحالة، في بنائه الفني و في مضامينه، تبعا لما كانت تعانيه الثقافة العربية في الجزائر من التنكيل و الاضطهاد، فجعلها تنحصر في مراكز تهتم بالشعر مثلما تهتم بعلوم أخرى، و لكنه اهتمام يعوزه الكثير من التعمق و الدراية بفنون القول و الذوق الرفيع.

في ظل هذا الواقع نشأ و تكون رواة الشعر و ناظموه و ارتبط نظمه بهم، حيث كانوا يتنافسون في نظمه و إنشاده بصرف النظر عن الموهبة و الإجادة، لأن مفهوم الشعر لم يكن يتعدى هذا المستوى من التعاطي، الذي كان آنئذ علامة كافية على تثقف الدارس و طالب العلم بل و تفوقه، فكانت تلك الأنظام تعكس نوعية الثقافة ذات الصبغة الدينية التي كانت تكتسب، لأن أغلب العلوم التي كان يتلقاها الدارس هي علوم شرعية، لذلك انحصر الشعر في المضامين و الموضوعات الدينية، مثل مدح شيوخ الطرق الصوفية و أولياء الله الصالحين، و مدح الرسول صلى الله عليه و سلم و آل البيت، و الاحتفال بالمناسبات الدينية، و يلاحظ بأن الشعر الديني هو الذي كان يهيمن على المدونة الشعرية، لأن الشاعر كان يجد فيه القوة و الملاذ، الذي حافظ على عقيدة الشعب، و إن عثر على بعض النصوص التي خرجت على هذا التقليد و نحت نحو أغراض تقليدية أخرى كالغزل و الفخر فهي نزر قليل من ناحية، و لا ترقى إلى مستوى النص الجيد، إذ لا تخلو من التكلف و التصنع من ناحية أخرى، و لعل ما يبرهن أكثر على انحطاط المضامين و ضحالتها، و السقوط فيما يشين بناء النص من ركاكة و سماجة، و يجعله أقرب شيء إلى النظم لا إلى الشعر، ذلك المدح المسطح المتزلف، إلى بعض الحكام الفرنسيين، الذين يعلم الجميع عن قناعة راسخة، بأنهم ما جاءوا إلى الجزائر إلا بغية ذل شعبها، و من النماذج النصية الحية التي تثبت هذا النزوع، قصيدة استقبل بها الشاعر القاضي محمد الشادلي القسنطيني "الدوق دومال" أثناء زيارة له لقسنطينة سنة 1846، منها هذه الأبيات:

- **قدوم جميل لا يفارقه السعد و يصحبه التعظيم و العز و الرشد**
  طلعتم كبدر الأفق من بعد غيبة و أنتم بدور العز، أنتم لنا القصد
  فأهلا بكم إذ زرتمونا و مرحبا فزورتكم فيها لنا الفخر و المجد[1]

[1]- أبو القاسم سعد الله: محمد الشادلي القسنطيني (1807-1877)- دراسة من خلال رسائله و شعره، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1974، ص105-106.

و نورد أيضا نصا صريحا لشعيب بن علي التلمساني قاضي تلمسان، الذي ألقى قصيدة يمتدح فيها الوالي العام الفرنسي "شارل جونار" نشرت سنة 1908 يقول فيها:

ولي على قطـر الجزائـر جـهـبـذا   ذا حـكمـــة في أمـره مخـتـــار
لا ينـثـنـــي عن رأيـــه، أو عـزمـه   في حكمه ليث الشـــرى (جونار)
(جونـــار) ذاك الشـــهـم من بـــه   ارتقت جزائـر و سما لها المقدار
ذاك المـرفـع في المحـافـل قـدره   ذاك السميـذع و الفتى العمـــار
ذاك الذي يرى الكمال فيما يرى   أهل الشورى من حزبه الأحـــرار
أكرم بـه من والى أرض مـذ غـدا   قطبـا عليـهـا حكمـه يـدار[1]

و مهما كان شأن هذين النموذجين البسيطين، و غيرهما من النصوص المشابهة الأخرى، فإن هذا الشعر كان معبرا صادقا عن الواقع الذي عاشه الجزائريون، في ظل احتلال ظالم عشرات السنين، و مصورا أمينا للصراع من أجل البقاء، بشتى الأساليب التي تكلفه.

و لعلنا نسلط الضوء الكاشف لوضعية الشعر الجزائري في هذه الحقبة أيضا في غير هذين النموذجين القـائمـيـن بذات المدح إلى أغـراض أخـرى دالة على مسحة الضعف التي اعتورت القريحة آنذاك، مثل الغزل الذي لم يكن فيه ماء و لا رواء، و لم يربطه بالشعر سوى الوزن و القافية، و أبلغ مثال على ذلك القصيدة السينية للشاعر محمد بن عبد الرحمن الديسي ذات عنوان "الباريسية" يقول فيها:

يا حسن مبسمها الشهي إن ضحكت   تألـق البـرق من بيـن الحنـاديـس
أشرت للوصـل أن صلي فمـا فهمت   و لا فهمت من المعنى سوى ديسي
فـأودعـت مهجـتي من حبـها حرقـا   يا حيرة القلب من تلك الوساويس[2]

كمـا شـاعت الأوراد و المنظومـات العلميـة في النحـو و البلاغـة و الفقـه و التوحيد، و هي ليست من الشعـر في شيء إنما هي امتداد لمفهوم ساد في عصر الانحطـاط، يرتكـز على التقليـــد المتكـلـف، من خلال المعارضة و التضمين، مثل المنظومة التي كتبها الشيخ عبد القادر المجاوي فخص بها علم الفلك مطلعها:

يقـول عبد القـادر الميجاوي   معتـرفا بالذنـب و المســاوي

[1]– صالح خرفي: المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، ص19.

[2]– عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، ص47.

و بعد فالفضل بذي الأبيات توضيح علم النجم و الميقات[1]

و قد نتج عن تقهقر الحركة الأدبية، أن تبعثرت كل الجهود الحية المنتجة، "و شغل الناس عن الأدب و الشعر، و لم يعد من همهم التعبير الجميل، و الغزل المليح، و الوصف الرائع، لأن ذلك لن يغنيهم عن النار التي يتلظون بها فتيلا، و لن يقف بينهم و بين الغاصبين حائلا، بل إنهم لن يجدوا الوقت الذي يستمتعون فيه، بمثل هذا الأدب، الذي كان يخاطب العاطفة بالغزل و الخمر و الرياض، و يخاطب العقل بالحكمة و الزهد و الفلسفة. و ما أبعد الأدب في ذلك الزمان عن أن يدخل معركة سياسية، أو أن يحسم روحا قومية، أو أن يحفز إلى مستقبل وطني فيه عزة و كرامة، و فيه حرية و استقلال"[2].

لكن وسط هذا الركود السائد و كساد سوق الإنتاج الشعري جهد منفرد، كان يخالف التردي و يسلك طريقا آخر غير طريق الضعف و الانحطاط و التحجر، فكان يصنع التميز و يدل دلالة قاطعة على أن الهمة تولد من رحم الأزمة، و هو جهد الأمير عبد القادر[*].

3. الأمير عبد القادر.. الشاعر الإحيائي:

إن أقل ما يقال في جهد الأمير عبد القادر المنفرد المتميز، أنه طفرة خلت أو بريق شعاع لمع من خلف الآكام، أو شعلة انفلتت من قبضة ظلام دامس، لكنها سرعان ما انطفأت بأفول نجمه، الذي غادر سماء الأرض التي كان يضيئها ردحا من الزمن مغادرة أبدية.

الأمير عبد القادر الذي اجتمعت فيه عدة خصال و مواهب، أهلته لأن يكون قائدا عسكريا و زعيما قوميا يجمع بين السلاح و الشعر، عدة و زادا للمعارك التي خاضها ضد الاحتلال، يأتي في فترة حالت الهوة فيها بين الشعر و روافده الثرة، التي كانت تغذيه من عيون الشعر القديم، و الشعر المشرقي الذي كان يستمد منه أواره و وهجه، و انقطاع مختلف أنواع التواصل بين الجزائر و بين امتداداتها الحضارية الطبيعية، و افتقار الساحة الأدبية الجزائرية آنذاك، لعامل التشجيع و غياب الناقد الموجه و المستنير، الذي كان بإمكانه و لو جزئيا، التصدي لتفشي الرداءة، و تدني مستوى التعاطي مع الذوق الإبداعي الرفيع، فتبرز شخصية الأمير البطولية و الأدبية، ليعيد بعث تاريخ الأمجاد في ثورته ضد الاستبداد و العسف، و ينتج صفحة جديدة من الأدب العربي في شعره، فكانت بمثابة

---

[1]- المرجع السابق، ص44.

[2]- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص22.

[*]- ينتمي الأمير عبد القادر إلى عائلة شريفة متدينة، ذو ثقافة واسعة و بارع في العلوم الشرعية و العلوم اللسانية و له عدة مؤلفات منها رسالته "ذكرى العاقل و تنبيه الغافل" و ديوان شعر يضم العديد من القصائد في مختلف الموضوعات و الأغراض القديمة و شعر الإخوانيات و التصوف.

الانتفاضة للشعر العربي في الجزائر، بددت ما اكتنف المرحلة الراهنة من ركود أدبي و انتعاش صوفي و رتابة موضوعية، فتجلت القصيدة الأميرية لتعود بنا إلى ألمع القصائد في عصورها الذهبية، من خلال بنائها الإحيائي التقليـدي و موضوعهـا المـألـوف، و إن بدا نص الأمير عبد القادر مكرورا و مجترا، فإنه أسهم إسهاما مهما في انتشـال الشعـر الجزائري من واقع قـاتم تلفه العتمة، و لعلها بداية ككـل البدايـات، لا تخلـو من العثرات و الهنات، لكنها وطأت أرضا صلبة، و وضعت قدما راسخة، و صنعت تجربة تمكن محتذيها من الارتقاء بالتجربة الجـزائريـة نحو الإجادة مثلما حدث في المشرق، و هو الأمر الذي لم يتحقق في الجزائر، بموت الأمير عبد القادر و غياب نصه النابض بالحمية العرقية الأصيلة و الحبكة الفنية التقليدية، التي تذكر الدارس و الباحث بأيام العرب الشعرية، في أرقى و أزهى صورها، و ما لبث أن عاود المرض و غزا الضعف الشعر الجزائري مرة أخرى، و صارت حرفة الشعر بئس الاحتراف، و قد ذكر الشيخ البشير الإبراهمي هذا المستوى المتدني فيما كتبه عن ماضي الشعر الجزائري قائلا: "و قد اطلعنا على أكثر (هذه الأشعار)، فإذا هي أخت الأشعار الملحونة الرائجة في السوق، لأنها منقطعة الصلة بالشعر في أعاريضه و أضربه، و منقطعة الصلة بالعربية في ألفاظها و معانيها، و منقطعة الصلة بالخيال في تصرفه و اختراعه..."[1].

و قـد غـــادر الأمير عبد القادر الساحة الأدبية، و لكنه ضمن الخلود في ذاكرة التاريخ و الأدب، بجهاده و مواقفـه الإنسانيـة و أعماله الفكرية و الأدبية، و لاسيما ديوانه الشعري الذي يشي باقتداره و مكنته الإبداعية، و حبه للشعر و تعلق وجدانه به، لأنه كان يحسبه زينة و حلية[2] يتباه المرء بها، و إن كان في شعره محاكيا لشعراء الجاهلية أو العباسيين، إلا أنه كان صادقا في تعبيره عن معاناته الذاتية، فنجده في الفخر مثلا يتعالق مع شخصيات عنترة و المتنبي و امرئ القيس و يبلغ أثر ذلك حد التناص مع بعض من شعرهم، حين يفخر بحسن قيادته للجيش و براعته في إدارة المعركة، و بشجاعته و إقدامه في ساحة الوغى، و حسن بلائه، مما حدا بالنقاد و الدارسين بأن يصنفوا شعره الذي يصف معاركه ضد العدو، بشعر المقاومة أو الشعر المقاوم، لأنه جعل من الشعـر سلاحا أمضى، يهز النفوس الخائرة، و يحفز المقاومين على الاستماتة في خوض المعركة و صد العدوان، و الدفـاع عن الهويـة و التمسك بالبقاء، و في قصيدته "المقصـورة" يذكر ذلك من خلال وصفـه لمعركـة

"خنق النطاح" فيقول فيها:

[1]- عبد الحميد بن باديس: الشهاب، ج9، م10/أوت 1934، قسنطينة، الجزائر، ص390.

[2]- محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص267.

ألم تر في خنـق النطـاح نطـاحنـــا	**غداة التـقيـنا كم شجـاع لهـا لـوى؟**
و كم هــامة، ذاك النـهار، قددتهـا	**بحـد حسامي، و القــنا طعـنـه شوى**
و أشقــر تحتي كلمــتــه رماحهـــم	**مرارا و لم يشك الجوى، بل و مالتوى**
بيوم قضى نحبـا أخي فارتــقى إلى	**جنـــان له فيـــها نـــبي الرضـى أوى**
فما ارتد من وقـع السهام عنـانـه	**إلى أن أتـــاه الفـوز يُرغــم من عـوى**
و من بينهم حملته حين قد قضــى	**و كم رميــة كالنـجـم من أفقـه هــوى**
و يـوم قضـى تحتي جـواد برميـــة	**و بي أحدقوا لولا أولو البأس و القوى**
و أسيافـنا قد جُردت من جفونهـا	**و رُدت إليــها بــعــد ورد لــقـد روى**(1)

يلاحظ من خلال مبنى و معاني النص، كيف يعود الشاعر بالقارئ إلى النص القديم، الذي عهدناه عند امرئ القيس و عنترة بن شداد، حين يصفان الفرس أو الجواد، و لعل شخصية الأمير الجهادية و الفنية هما اللتان ألهمتاه بسلوك هذا السياق، خصوصا و أنه يمثل شخصية المثقف و الأديب و المجاهد الجزائري الذي ندر أن نعثر عليه في هذه الفترة الكالحة.

و حتى الأغــراض الشعــريـــة القديمة الأخرى التي تناولها في شعره لم تخل من ملامح شخصية الفارس الذي طغت على طبعه أخلاق الفروسية، تترجمها سلوكاته التي تجمع دوما بين الفعل و القول، فنلمس في فخره أيضا الذي يمزج فيه بين الإشادة بالشجاعة و ذكره لزوجته التي يحبها، أثر عنترة و المتنبي حين يشيدان بالشجاعة و شدة البأس و البطش بالعدو، و لاسيما حين يقول:

تســاءلــني أم البنـــيــن و إنـــهـا	**لأعلــم من تحت السـمــاء بأحــوالي**
ألم تعلـمي، يـا ربــة الخــدر أنــني	**أجلي همــوم القــوم، في يــوم تجــوالي**
و أغشى مضيق الموت، لا متهيبا	**و أحمــي نســاء الحي في يوم تهــوالي**
أمير، إذا مـا كان جيشــي مقبــلا	**و موقد نار الحرب، إذا لم يكن صــالي**
إذا مـا لقيــت الخيــل إني لأول	**و إن جال أصحــابي، فإني لهم تـــال**
أدافع عنهم، ما يخافــون من ردى	**فيشكر كل الخلــق من حسـن أفعــالي**
و أورد رايـات الطعــان صحيـحة	**و أصدرهــا بالـرمي تمثـــال غربـــال**(2)

(1)- الأمير عبد القادر: الديوان، جمع و تحقيق- شرح و تقديم العربي دحو، ط3، مؤسسة تالة، الجزائر 2007، ص53.

(2)- المصدر نفسه، ص49.

و يتجلى إحيائه للمضامين و الأشكال القديمة في غزلياته الخالصة فهو مثل من تغزل قديما فاشتكى من الهجران و آلام البعاد و سهر الليل و ساير النجوم، و اكتوى بنار الحب و تباريحه، و عانى الفراق، و من نصوصه التي تفشي هذا الوجد قوله:

- أقاسي الحب من قاسي الفؤاد و أرعاه، و لا يرعى ودادي
أريد حياتها، و تريد قتلي بهجر، أو بصد أو بعاد
و أبكيها فتضحك ملء فيها و أسهر، و هي في طيب الرقاد
و تعمى مقلتي، إما تناءت و عيناها تعمى عن مرادي
و تهجرني بلا ذنب تراه فظلمي قد رأت دون العباد
و أشكوها البعاد و ليس تصغي إلى الشكوى و تمكث فازدياد
- خليلي إن أتيت إلي يوما بشيرا بالوصال و بالوداد
فنفسي بالبشارة إن ترمها فخذها بالطريف و بالتلاد
إذا ما الناس ترغب في كنوز فبنت العم مكتنزي و زادي[1]

و تفيض شجونه بازدياد شوقه و حنينه لزوجته، فيفصح عن معاناته الذاتية في نص آخر قائلا:

أقول لمحبوب تخلف من بعدي عليلا بأوجاع الفراق و بالبعد
أما أنت حقا لو رأيت صبابتي لهان عليك الأمر من شدة الوجد
و قلت أرى المسكين عذبه النوى و أنحله، حقا إلى منتهى الحد
و ساءك ما قد نلت من شدة الجوى فقلت: و ما للشوق يرسيك بالجد
و إني و حق الله، دائم لوعة و نار الجوى، بين الجوانح، في وقد[2]

و يجيد الأمير عبد القادر أيضا حين يطرق باب الوصف مقتفيا أثر أسلافه من الشعراء الأقدمين و هو يمتح تعابيره و كلماته من البيئة البدوية الصحراوية فتشي بمشاعره و أحاسيسه المتعلقة بالتراث الشعري القديم و بحياة البادية التي تلقي بظلالها على شعره الوصفي، فنجده في قصيدته مثلا التي يجيب فيها عن سؤال سئله، هل البدو أفضل أم الحضر؟ فأجاب قائلا:

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر و عاذلا لمحب البدو و القفر
لا تذممن بيوتا خف محملها و تمدحن بيوت الطين و الحجر

[1]- المصدر السابق، ص58-59.

[2]- المصدر نفسه، ص60.

لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني لكن جهلت، و كم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيا بساط رمل، به الحصباء كالدرر
أوجلت في روضة، قد راق منظرها بكل لون جميل شيق عطر
تستنشقن نسيما، طاب منتشقا يزيد في الروح لم يمرر على قدر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنه علوت في مرقب، أوجلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها سربا من الوحش، يرعى أطيب الشجر[1]

مثل هذه الأساليب و الاستعمالات اللغوية الوصفية نجدها تشيع في الكتابة العربية منذ الزمن الأول للأدب العربي، و كأن الشعراء الأوائل يتكررون في شخص الأمير عبد القادر، فهو إذن إحيائي من الطراز الأول، و رائد من رواد المدرسة التقليدية، الذين لولاهم لما عاد للشعر بريقه و فحولته، التي افتقدها ردحا من الزمن المظلم، و قد تساءل أحد الدارسين "لم لا تكون هذه الشخصية عتبة النهضة الشعرية الحديثة عندنا؟"[2] أي في الجزائر، ألا يكفي نبوغ و تألق الأمير عبد القادر في الفضاء الأدبي الجزائري و مضاهاته لأعيان البيان العربي أمثال أحمد فارس الشدياق و رفاعة الطهطاوي، و بطرس البستاني و ناصيف اليازجي، الذين اختطوا طريق المجد و النهضة العلمية و الفكرية في الوطن العربي، و كانوا نموذجا يحتذى في الكتابة و الإبداع فيمثل الأمير هذه العتبة في الجزائر هو أيضا؟

هذه النجومية و الفرادة المتعلقة بشخص الأمير، التي كانت تملأ الفضاء الجزائري الرحب، مثلها كمثل شخوص الشعراء الألمعيين القدماء الذين ملأوا الدنيا و شغلوا الناس بما أنتجوا من معلقات و قصائد، لازالت تنتج قراءاتها و معانيها إلى اليوم، لكنها لم تستطع تعويض القارئ عن الفراغ الفني الرهيب الذي شعر به و حل بالأدب العربي أيام انحطاطه، فصار يحتاج إلى هبة جديدة، و هزة شديدة تقلب الوضع و تغير الواقع نحو الأفضل، بالإضافة إلى أن فحولة الأمير و شاعريته، و صدق معانيه و عواطفه، لم يمكنه كل ذلك من تلافي مسحة الضعف الغالبة على الإنتاج الشعري، في تلك الفترة لدى معاصريه من الشعراء الآخرين، كما لم تخل منها بعض أشعاره هو أيضا.

و يبقى أن نشير إلى أنه مهما يكن من شأن شعر الأمير فإنه كان خير معبر عن عصره، و خير مفصح عن خوالج نفس صاحبه "فبطل الجزائر، و إن كان من أرباب السيف، فقد كان أخا القلم، لا يغمد أحدهما حتى يجرد

[1]- المصدر السابق، ص50.

[2]- صالح خرفي: المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، ص101.

صاحبه، فيبري بالأول الرؤوس و الهام، و يبري بالثاني النفوس من سقام الأوهام. و مثله في أدباء الأمراء كمثل سيف الدولة بن حمدان، غير أنه كان أوفر ذماما و أوفى عهدا و ميثاقا من ممدوح المتبني. و يستشف من خلال خطبه و كتاباته، و من بين قصائده و مقاطع أبياته الطبع و فخامة التعبير. غير أنها كادت تخلو من رونق التجويد، و بهاء التنسيق..."[1]، و للشاعر الفارس عذره في ذلك، فلم يكن مثل غيره من الشعراء الذين يصفون المعامع من خارجها، فقد أمضى الرجل "زهرة حياته في مقارعة الرزايا و الكروب، دفاعا عن الأعراض و ذيادا عن الأوطان ما حبسه عن أن ينظر في شعره و نثره نظرة تحسين أو جميل... و مع هذا – فهو– ليس دون الطبقة الأولى من أدباء عصره"[2]، فإن لم يكن احتلاله لهذه المكانة الريادية رفقة كبار الكتاب و الأدباء العرب بجودة أسلوب شعره و متانة سبكه، فإن هذه المنزلة له حتما بمضامينه البطولية التي تفرد بها، فصارت علامة مميزة لشعره آنذاك، و خلو الساحة الأدبية الجزائرية من الشعراء المماثلين له، أو من هم في مستوى الذوق الشعري الرفيع، فلم تكن إلا تلك الأسماء القليلة التي كانت ترافق الأمير في حله و ترحاله و خاصة أثناء منفاه مثل قدور بن رويلة و محمد الشادلي القسنطيني و محمد المبارك، الذين كانوا يقتبسون من نور القصيدة الأميرية و يستظلون بظلها، و لعلها النتيجة المنطقية، التي آل إليها الشعر الجزائري في تلك الفترة، بسبب ما كانت تعانيه الثقافة العربية من اضطهاد و قهر، و إحلال بدلا منها ثقافة فرنسية صليبية، تأثر بها الكثير من المثقفين الذين كان يعلق عليهم الأمل في بعث الشعر العربي الجزائري و إحيائه من جديد، و يستمر الضعف و الانحطاط إلى أن تظهر طبقة من الشعراء المشايخ و الكتاب الصحفيين في مستهل القرن العشرين، الذين تتضافر جهودهم لتغيير وجه الحياة، و تشهد تحولا لافتا في مسارها الرتيب، عندما توفرت أدوات التغيير.

[1]- المرجع السابق، ص101-102.

[2]- المرجع نفسه، ص102. و انظر عبد الملك مرتاض: أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962)، دار هومة، الجزائر 2003، ج1، ص163.

عوامل اليقظة و النهضة الفكرية في الجزائر

تمهيـــد:

يطل القرن العشرون و تهب معه رياح التغيير التي قدمت من الشرق و الغرب، و تبرز معها ملامحه بظهور نخبة مثقفة أبدت موقفها الرافض للسياسة الاستعمارية بشكل إنفرادي غير منظم، و بعد مطلع هذا القرن فاتحة الزمـن الحـاسم الذي يسجل بداية تطلعات الجزائريين للوعي و اليقظة و الشروع في القيام بنهضة ثقافية تنسجم مع طبيعة المرحلة، و قد مثل هؤلاء فترة الخروج و الانعتاق من مرحلة الانكفاء على الذات إلى عهد جديد واعد بحركة ثقـافيـة و أدبيـة نشطـة ضمن منـاخ سيـاسي و اجتمـاعي متأجج، يعج بالأحداث الحبلى بتنوع الألوان و المشارب الثقافية و الأطياف الفكرية و تعدد الألسنة، و شرعت جذوة الحس الوطني تتقد و تتنامى باحتدام الأجواء الفكرية و الثقافية.

خـاض المثـقـفـون و العلمـاء و المفكـرون معتـرك الإصـلاح و التغيـير، الذي لم ينطلق من فراغ تاريخي أو اجتمـاعي أو سيـاسـي، بـل كـان متكئـا على رصيـد تـراثي معرفي، فلـم تكن الجزائـر موطنـا للفـوضـى و التخلف، و لم تكن مؤسساتها ضعيفة، بل كانت ذات قيم إنسانية و اقتصادية رفيعة المستوى لها ارتباط معين بالشمولية العالمية[1]، و من ثمة فإن إصلاح و تغيير الوضع الاجتماعي القائم، الذي سيتبلور على ضوئه مشروع المجتـمـع الجزائـري الجديـد المنوط بهذه الفئة النخبوية من المجتمع، لا يعني تغييره النسبي، مع بقاء أصل الفساد على مـا هـو عليه، أي إصلاح بعض الجوانب و إهمال الجوانب الأخرى "بـل يعني إقامة ثورة على الأمد الطويـل، و ذلك بتغيـيـر الجذور النفسيـة و الحضاريـة في وجدان هذا العصر... و التمهيد للثورة و إقامتها على أساس متين بعد إزالة الإصلاح للمعوقات القديمة"[2] كما يرى بعض علماء الاجتماع، و لهذا المنظور تصدى هؤلاء المثقفون الوطنيون للتغيير و البناء الذين يرونه عبارة عن منظومة من الأفكار السياسية و الاجتماعية، تمكن من مواجهة كل أشكال الظلم و الفساد و التمزق الاجتماعي و التخلف الحضاري، خاصة و أن الأمة الجزائرية كـانت موجودة، و كـان المجتمع قائما، و لاشك أن المشروع الذي شكل حلم التيار الوطني هو الذي تجتمع في تكويـنـه عدة مقومات متكاملة، يطمح الجميع لتجسيدها، و لعل المثقفين الشعراء قد نالهم نصيب من المحنة و اكتووا بنار الظلم

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص146.

[2]- حسن حنفي: قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر 1988، ص44.

و العسف، و اختمرت في عقولهم ضرورة التغيير، فحلموا بغد أفضل، فما هي منزلتهم ضمن الطبقة المثقفة؟ و كيف كانت إسهاماتهم في تجسيد طموحاتهم؟

1. حركة الجامعة الإسلامية:

بإمعان النظر في صفحات التاريخ نجد أن أحداثا تاريخية مشهودة توالت تركم بعضها بعضا فتسهم جميعها وفق مفهوم التأثير و التأثر، في تغيير وجه الوضع الجزائري المزري، حين تترسخ القناعة في نفوس الجزائريين، بوجوب النهوض و نفض غبار الركود و الانحطاط و تداعياتهما، و إذا حفرنا في طبقات التاريخ القريب جدا من مستهل القرن العشرين، سنجد أن حركة دؤوبة خارج الجزائر، تتنامى متجهة نحو تحقيق أهداف مصيرية، تخص العالمين العربي و الإسلامي، و أسمى هذه الأهداف الوحدة و الحرية تحت ظل القرآن و السنة و التاريخ و المصير المشتركين، تلك دعوى نادت بها حركة الجامعة الإسلامية[1] التي نبتت كفكرة هي في الأصل من بنات أفكار السيد جمال الدين الأفغاني (1838 – 1897) و قاسمه الانشغال بالدعوة إلى مبادئها كل من الإمام محمد عبده (1849 – 1905) و رشيد رضا (1865 – 1935) لكن الذي تبنى هذه الفكرة و تحولت على يديه عملا ميدانيا مكرسا على الأرض، هو السلطان عبد الحميد الثاني (1842 – 1918) و هو على رأس الدولة العثمانية بتركيا، حينما أخذ بجمع الدويلات تحت راية الدولة العثمانية، و بث نشاط الجامعة في الوطن العربي و الإسلامي و لاسيما الجزائر، و دعى إلى توحيد المسلمين في دولة كبرى، و على رأسها خليفة قادر على رد الغزو الصليبي، يوم وهنت قوتهم و خارت عزائمهم، و صاروا فريسة لوحوش ضارية جشعة، فاتفق هؤلاء الزعماء جميعا على ضرورة بعث القرآن، و بعث تعاليمه الصحيحة بين المسلمين و شرحها على وجهها الصحيح الثابت، الذي يؤدي بهم إذا ما عملوا بها إلى السعادة في الدارين، و ملاذ يحتمون به من حملات الطمس و التشويه، التي مورست على الأوطان العربية حين فقدت القائد و النصير، لكن هذه الأزمات التي نكب بها العرب كانت موجعة، و لكنها كانت تحمل معها إلى جانب الألم و الحزن بشرى التحرر، لأنها كانت تدفع العرب دفعا إلى النهوض و الاتحاد و التضامن ضد استعمار ظالم.

[1]- محمد عمارة: الجامعة الإسلامية و الفكرة القومية عند مصطفى كامل، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان 1976، ص47.

2. مساندة ليبيا ضد الاحتلال:

ما حدث في ليبيا من خلال الاعتداء الإيطالي سنة 1911، كان حدثا ذا وقع قوي على نفوس الجزائريين الذين هبوا لمساندة الليبيين في جهادهم ضد المحتل بكل ما يمتلكون من وجوه المساعدات المادية و المعنوية، و لاسيما الدور الذي لعبته الصحافة الجزائرية، في التنديد بالغزو الإيطالي، و إيقاظ همم الليبيين للدفاع عن أرضهم الطاهرة، و من هذه المواقف الصحفية المشهودة، موقف للصحفي الأديب عمر بن قدور، نشرته جريدة "الحضارة" (صدرت في الآستانة 1910)، يتجلى في دعوته الصريحة للوقوف إلى جانب الإخوة الليبيين يقول فيها: "و تنصب الدسائس على بلاد العرب، و تروج فيها الأكاذيب الأجنبية، و تقوم الفتن في كل ناحية، و تنتهك حرمات بيضة الإسلام، و يزري بها أهلها، و يتبرأ منها ذووها، هناك يود كل موحد لو أن رأسه حز عنه نخيل واحة طرابلس الغرب و برقة، دون أن يعاين هذا المصاب الجلل، و لعذاب الآخرة أكبر فليتق الله أرباب الأمر في طرابلس الغرب و برقة إن كانوا يعقلون"[1]، و في هذا الخطاب دلالة على امتداد المنظور الفكري الذي تتقمصه الجامعة الإسلامية و اقتداء بهديه من قبل المثقفين و المصلحين الجزائريين، و لعل المرحلة كانت ملائمة لتكريس الفكر الإسلامي الحديث، و هو ما جعل الباحثين و الدارسين يعتقدون بأن غرة القرن العشرين هي أهم فترة لنضوج الفكر الإسلامي الجديد، لأنه ارتبط كثيرا بالواقع الاجتماعي الراهن و تشكلت فيه رؤية متكاملة حول العالم الغربي[2] الاستعماري و الإمبريالي، لذلك أحدث هذا المشروع التحرري الحديث، أو ما يسمى أيضا بالحركة الإصلاحية الإسلامية الحديثة، قلقا لدى الدول الأوروبية الاستعمارية، كما أحدث نهضة فكرية و يقظة سياسية لدى الشعوب العربية المستضعفة و لاسيما عند الجزائريين، الذين تنبهوا بعد غفلة، و نهضوا بعد انكفاء على الذات، و بعد أن استبد بهم اليأس بسبب خارجي آخر، يمكن أن ينضاف إلى السببين السابقين و هو:

3. الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918):

نقمة الحرب الكونية الأولى كانت وبالا و دمارا على العالم كله، لكنها رغم ذلك كانت نعمة على الشعوب المستضعفة التي اكتوت بنارها، فقد قاتل أبناء الشعب الجزائري في هذه الحرب، إلى جنب الفرنسيين أملا في تحقيق حلم التحرر و الاستقلال، لكنه سرعان ما تحول إلى وهم بإماطة اللثام عن النية المبطنة مما يزيد وضع المجتمع تأزما،

---

[1]- محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، ط1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1980.

[2]- زكي الميلاد: من التراث إلى الاجتهاد- الفكر الإسلامي و قضايا الإصلاح و التجديد، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 2004، ص45.

إلا أنه عسر حقق للجزائريين الكثير من الفوائد الذاتية و الاجتماعية، ما كانوا ليحققوها لولا الحرب، و أهمها صحوة الضمير الجمعي، و اتقاد الفكر و الحسن اللذين مكناهم من كشف حقيقة المستعمر العارية، و إدراك عظم الخطب المحدق بالمجتمع، و هول الدمار الذي تتعرض لها بنيته، فتزداد بؤرة التوتر و مساحة الألم و الحزن اتساعا، و يزداد معها مقتهم لفرنسا، و تضيق هوة الفرقة بين الأشقاء، و يكون الشاعر رائدا في نقل هذه الأجواء و تصوير المشهد لكل نفس أبية ترى المذلة كفرا، و الإساءة إلى العقيدة أقبح الآثام، و التخاذل في الذود عن الهوية أشنع الخلال، خاصة بعد رجوع الشباب الجزائري الذي جند في الحرب.

4. حركة الأمير خالد:

يحمل عبء التحرك السياسي، الأمير خالد بن الهاشمي بن الأمير عبد القادر، و هو أحد هؤلاء الشباب الذين خبروا الحرب و أسهموا في نمو اليقظة الجزائرية متأثرين بأفكار الجامعة الإسلامية الداعية إلى تجديد الدين الإسلامي و تنمية الشعور الوطني و رفض الاستعمار، و رسالة الجهاد التي نافح من أجلها الأمير عبد القادر قبلهم، فكان لزاما عليهم مواصلة المد التحرري بالرؤية الأصيلة ذاتها، و السعي في إعداد برنامج إصلاحي مؤسس على المرجعية الدينية و الوطنية مدعوما بتأسيس جريدة "الإقدام" سنة 1919، لتكون لسان حال الحركة و الدعوة لمبادئها و الدفاع عنها ضد خصومها، و تعرب عن اتجاهها الوطني الواضح رافضة التجنس، و قد تعددت الجوانب المسطرة في برنامج الحركة الإصلاحية التي دعا إليها الأمير فلم تكن سياسية فقط بل جمعت بين السياسة و الدين، إذ دعت بصراحة و جرأة إلى ضرورة الإصلاح الديني و حماية المؤسسات الدينية الإسلامية و تخليص الفكر و التعبد من الشعوذة و البدع، و ضرورة اليقظة و المطالبة باستقلال الجزائر، كما يتضمن برنامج الحركة الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي و التكفل بقضايا الشباب الجزائري، و حثهم على اكتساب العلوم و المعارف، و محاربة الفساد و التشبه بالغربيين، و شجع الفنون المختلفة و لاسيما الشعر و المسرح، فقد ساهم الأمير في ظهور حركة مسرحية جزائرية بتأسيس عدد من الجمعيات الثقافية المسرحية بالمدية و البليدة و العاصمة، و المساهمة في إعداد التظاهرات الثقافية، و لاسيما تنظيم زيارة الوفد المسرحي المصري بقيادة جورج أبيض إلى الجزائر سنة 1921(*)، و قد قوبلت جهوده الإصلاحية الثقافية بحماس كبير من قبل رجال الفكر و الثقافة، و كانت حافزا لتغيير الكثير من المواقف الأيديولوجية اتجاه المستعمر و اتجاه الوطن و عناصر الهوية، و إن أهم ما تكشف عنه هذه الجهود النهضوية التي بذلها الأمير خالد في حركته الإصلاحية، هو شاعريته الفياضة، التي كانت تفصح

(*)- قامت الفرقة بعرض ثلاث مسرحيات باللغة العربية، الأولى بعنوان: شهادة العرب، و الثانية بعنوان: صلاح الدين الأيوبي و الثالثة بعنوان: مجنون ليلى، و كان الأمير خالد هو الذي يقوم بنفسه بالدعاية و استقطاب الجمهور لهذه العروض.

عن مشـاعره الجياشة اتجاه أبناء وطنه و اتجاه قضية وطنه، و حقه في تقرير مصيره، و مما تحتفظ به جريدة "الإقدام"، من رصد لهذه الشاعرية، قصيدة ألقاها في أحد تجمعاته، الداعية للاتحـاد

و التضامن أثرت في السامعين، و أبكت الكثير منهم عنوانها "ذكرى للعاقلين و تنبيه للغافلين" و منها قوله:

أهـل الجـزائـر ما هـذا الجمـود و ما هذا التـأخر دون النـاس كلـهـم

استـيـقـظـوا من سبات كاد يجعلـكم بين الورى في الملأ سـربا من الغنـم

علاكم الـذل بـعـد العـز وا أسـفـي على تقـهـقـر أسمـى سائر الأمـم

سيروا على منهج الأسلاف و اجتهدوا و سارعوا لاكتساب العلم بالقلـم

و تنـقضي حركـة الأمير خالد بالمصادرة و النفي، ثم يقضي الرجل سنة 1936، لكن مبادئ هذه الحركة لم تنقض بل بقيت مبثوثة و ثاوية في نفوس و أرواح الوطنيين الذين تغلغل فيهم الحس الوطني النهضوي.

5. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

اعتبرت جمعية العلماء المسلمين فقدان الأمير خالد، بمثابة فقدان مسلم غيور على دينه، صلب في الدفاع عن مبادئه، و خير منافح عن وطنه، فواصلت مساره بالمساهمة الحثيثة في شحذ الهمم و بث اليقظة و إصلاح الأوضاع المتردية، و لاسيما الوضعين الديني و العلمي، لذلك تعتبر نشاطاتها و جهودها الإصلاحية، متأثرة باليقظـة الإسلامية التي انتشرت في المشرق العربي على يد زعماء الإصلاح العربي الإسلامي: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده و رشيد رضا. و تعد امتدادا طبيعيا للحركات الإصلاحية التي سبقتها فظلت وفية لهذه الأبعاد و لاسيما حركة الأمير خالد ذات الأبعاد الدينية و الاجتماعية و التربوية و السياسية في الجزائر، و قد ظلت وفية لهذه الأبـعـاد، فحـمـلت على عـاتـقـهـا بنـاء الفرد الجزائـري و تكوينه تكوينـا سليمـا يـرتـكز على العـروبـة و الإسـلام، و العـودة إلى أمجـاد الأمـة الآفلـة، و الاضطلاع بدور كبير لا يستهان به في بعث العلم و الفكر و الأدب، لأنهـا جعلت التعليـم أحد وسائلهـا في نشر الوعي و اليقظـة و إعداد المتعلمين إلى أهداف مستقبلية، و حثهم على الهجرة إلى البلاد العربية المغربية و الشرقية قصد الالتحاق بالمعاهد و الجوامع العلمية العليـا، لينـالوا حظـا أوفر من العلم و المعرفة، و الانفتـاح على الثقافات و الأفكار و الآداب المختلفة، و هذا مـا حدث بالفعل إذ انتقل عدد هـائل من طلبة العلم نحو الزيتونة و القرويين و الأزهر و معاهد أخرى بالعـراق و الشام و الحجاز و ليبيا، و كانت تحرص الجمعية على دعوة العلماء و الطلبة المتخرجين للالتقاء لدراسة الوضع العـام و التعـاون من أجل إنقاذ الشعب العربي المسلم بالجزائر[1]، هذا ما يبرز استفادة جمعية العلماء و رئيسها من تجارب من سبق من رجال و

[1]- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين و دورها في تطوير الحركة الوطنية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1981، ص77.

حركات الإصلاح، و لاسيما الأمير خالد الذي أعلن موقفه المتحدي الصريح لفرنسا، دون تهيئة الخلفية الإسنادية في تحمل المسؤولية، لكن مواقفها لم تكن تخلو من الصرامة و اللهجة الحادة في بعض منها، مثل رفضها لسلطة الكافر على المسلم، فاعتبرت التجنيس إثما يستوجب التوبة لمن يقوم به، و جعلت أول جهد في أولوياتها، تعليم الإسلام الصحيح و اللغة العربية و التاريخ الإسلامي، و سائر العلوم العربية الأخرى، و من ثم فقد شكل الدين الإسلامي و الوطن لديها، البعد الإستراتيجي الذي ينبثق عنه كل عمل يقوم به الفرد، و قد انعكس هذا المفهوم على الإنتاج الأدبي و الإبداعي عموما و الشعري خصوصا، حيث أخضع الشعراء كل اهتماماتهم للحديث عن المضامين التي تدور في فلك البعد أو المنظور الذي تتمسك به الجمعية، و التصدي للمفاهيم المشوهة و الباطلة التي ينشرها الاستعمار، و إجهاض كل القوانين و السياسات العسفية التي يمارسها المستعمر، لبسط نفوذه في الجزائر، كالتجهيل و الفرنسة و التجنيس و التجنيد الإجباري و التفقير و إلغاء القضاء الإسلامي، و لصد هذه الأفكار و الممارسات ارتكز برنامجها العملي على المبادئ الآتية:

- إحياء الدين الإسلامي و تطهيره من الشوائب التي علقت به.
- تطوير الثقافة العربية الإسلامية.
- توحيد أبناء الشعب الجزائري تحت راية العروبة و الإسلام.
- الدعوة إلى التوحيد و العمل المشترك مع أبناء تونس و المغرب.
- نشر تعليم عربي مستوحى من الوحدة العربية و الإسلامية.[1]

و من الواضح أن هذه المبادئ تعتبر الإصلاح قيمة اجتماعية مؤسسة على العودة بالدين و قيمه إلى عهده الأول، لأنه نقطة انطلاق في كل تغيير اجتماعي، فاعتبرت أول عائق في طريق الإصلاح تجب إزاحته هو الخرافات و البدع، التي علقت بالقيم الدينية، و شوهت جوهر الإسلام، ثم تأتي المهمة الثانية و هي إيقاظ الضمير الاجتماعي الشعبي، لتتحول فكرة الإصلاح إلى فكرة جماعية، أهم آثارها، الاستمرار و التواصل الضامنان الرئيسان لنجاح مشروع المجتمع الجزائري الجديد، الذي كرست له جمعية الإصلاح كل جهودها و جهود العلماء المصلحين قبلها، فكانت عاملا قويا في دفع الصحوة الفكرية و الأدبية إلى النضوج، تأسيا بالمشرق و المغرب. و كان للشعر حضور قوي في دفع عجلة الإصلاح و إسماع صوت الجزائر الحرة في أقاصي الدنى، و أسهم كل ذلك في إنتعاش الثقافة عامة و أثمر حركة شعرية لها طابعها المميز.

[1]- عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1997، ص264.

و لن نبرح الحديث عن الإصلاح دون أن نشير إلى الإسهام الفاعل للعلماء المصلحين في تشكيل المشهد النهضوي الممهد لتأسيس جمعية العلماء، و كذا إسهام الصحف و المطابع التي رافقت و احتضنت الفعل الثقافي و الأدبي، و كانت منبرا ثرا لكل الأصوات اليقظة و الواعية بمختلف أطيافها، فقد كان للعلماء المصلحين المخضرمين حضورا قويا من خارج الجزائر و داخلها، الذين كتب لهم أن يواكبوا أحداث الجزائر الثقافية في زمن انحطاطها و في زمن رشدها أيضا، في التمكين للفكرة الإصلاحية، فكثر الدعاة إليها، و لاسيما بعد زيارة الإمام المصلح محمد عبده إلى الجزائر سنة 1903 الذي زاد من تحفيز العلماء و المشايخ و المثقفين على المضي في الدعوة إلى النهوض و اليقظة، بمفهوم إصلاحي جديد، يتبنى السلم و الهدوء وسيلة للتغيير، فكان ناصحا أمينا للجزائريين بالحرص على الجد في تحصيل العلوم الدينية و الدنيوية معا، و خدمة البلاد بكل تفان و إخلاص بالطرق المشروعة، بالتركيز على التربية و التعليم قبل السياسة، و الاشتغال بالعلم لأنه هو المنقذ الوحيد[1]، فكانت هذه الزيارات عبارة عن حلقة من حلقات التواصل الحضاري و التاريخي بين الجزائريين و المشارقة، تمخض عنها حراك اجتماعي يمزج بين الثقافة و السياسة، أنتج حركية أدبية تعج بالأقلام المبدعة، و القرائح الشعرية المتأثرة بالتراكمات المعرفية، و الإنتاج الشعري المشرقي، كما أنتج مولودا جديدا هو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931) المستقلة فكرا و أسلوبا[2]، لكن تأثير الحركة العبدوية كان باديا بوضوح من خلال أقوال العلماء الجزائريين الذين لا يستطيعون إخفاء مشاعرهم نحو إمام الحركة الإصلاحية المشرقية بل العربية، إذ يصرح الشيخ البشير الإبراهيمي في شأنه قائلا: "كان الأستاذ الإمام أعجوبة الأعاجيب في الألمعية و بعد النظر و عمق التفكير و حدة الخاطر و استنارة البصيرة و سرعة الاستنتاج و استشفاف المخبات، حكيم بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى، منقطع النظير في صدق الإلهام و سداد الفهم و صدق العزيمة"[3]، و في تأثير زيارة الشيخ الإمام على الجزائريين ينشد أحد العلماء قائلا:

قد سعدنا بزورة منه جاءت بسعود يفر منا الشقاء

كم سهرنا و منه نلنا علوما ما سمعنا بها و لا الآباء[4]

6. دور العلماء المصلحين:

[1]- مجلة المنار، م22/6 أكتوبر 1903، مطبعة المنار، مصر، ص917، و انظر أيضا محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ط3، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1983، ج2، ص120.

[2]- محمد البرج: الجزائر في كتابات محمد عبده، مجلة الأصالة، ع52، الجزائر 1987، ص23.

[3]- محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ج3، ص304.

[4]- المرجع نفسه، ج ن، ص ن.

ينبغي أن نشير في البداية إلى أن دور العلماء المصلحين في إصلاح الأوضاع الجزائرية، يأتي قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي احتضنت الفكر الإصلاحي، و حولته إلى عمل ميداني منظم، و يفترض أن يكون حديثنا عن العلماء المصلحين سابقا للحديث عن دور الجمعية في بث اليقضة و النهظة، لكن المنهجية التي اتبعناها فرضت ذلك.

و بعيدا عن مستوى التابع و المتبوع، تأثر العلماء المصلحون المحافظون، بعلماء المشرق و بالحركات الإصلاحية، فكانوا يتابعون كل الوقائع عن طريق المعاينة و المعايشة، من خلال الهجرة أو الرحلات، أو بطريقة غير مباشرة، من خلال الكتابات الصحفية و الأدبية، و منهم من أهلته ثقافته المزدوجة، إلى الاطلاع على الجديد أيضا في الحياة الاجتماعية و الثقافية الأوروبية، و من هؤلاء العلماء الجزائريين الذين كان فضلهم كبير على وطنهم و على شعبهم المكلوم نذكر منهم:

1.6. الصحفي الأديب عمر بن قدور (1886 – 1922)[1]:

له إسهامات صحفية و أدبية، شعرية و نثرية في نشر الوعي و اليقظة داخل الجزائر و خارجها، من خلال كتاباته في العديد من الصحف العربية بتونس و مصر و بالآستانة، و الجزائرية مثل جريدتيه "الفاروق" و "الصديق"، كما دعا لبناء المدارس العربية لطلب العلم و تعليم اللغة العربية و تهذيب الأخلاق، و إنشاء النوادي الأدبية لتفتيق القرائح و صقل المواهب، كما تميز بمحاربته للخرافات و البدع، و الدعوة إلى الإصلاح الديني، و من أهم كتاباته الشعرية التي يصف فيها الحالة الدينية المزرية قصيدة بعنوان "دمعة على الملة" يقول فيها:

أيا قوم ما ذقتم حلاوة صبها و ما مسكم يوما أليم جواها
أيا قوم ما تحلو لقلبي حياته و قد دوخ السمحاء هول فناها
بكائي عليها لا على الخل و الحمى و خوفي عليها لا أريد سواها
أضُيعت فضاع المجد منا و لم نكن شدادا و قد هم القضاء لقاها
أقام الرسول الهاشمي صروحها و أوصى بأن لا نزدري بعلاها
مقدسة ضمت حياة و رفعة و قد خلصت مما يشين بهاها
أتت للورى بالمكرمات و خيرها و حثت على نيل العلا و هداها
و فاضت علوم العالمين بفضلها على الخلق و اهتموا بطيب شذاها

[1]- صالح خرفي: عمر بن قدور الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص43.

و قد نُشرت في الأرض دون مبشر و لكن وضوح الحق كان لواها
و لما غدت بين اللئام غريبة أهينت بعيث الخائنين. فواها
ألا يا بني السمحاء هلا شعرتم بذي الذلة الكبرى و حر لظاها
و هل ملة الإسلام ترضى بذُلكم و قد أكرمت أسلافكم بنهاها[1]

قصر عمر بن قدور كل قريظه في الدفاع عن حياض الإسلام و الأمة الإسلامية، و تأثر كثيرا بمصابها الجلل، فلم يكن اهتمامه بالأوضاع الداخلية للمسلمين الجزائريين فقط بل تخطى الحدود إلى الأمة الإسلامية جمعاء، لأنه يتبنى رؤية شمولية، فيرى بأن العالم الإسلامي كالجسد الواحد و هو ما نستشفه من خطابه الموجه إلى المسلمين عامة في قصيدة بعنوان "إلى الأمة الإسلامية"، فيقول:

أقول و رب الناس ما السعد حاصل لحر على وجه البسيطة في وقتي
و ما انفك ذو الفكر الصحيح مقيدا أليف الضنى و الضير في السوق و البيت
و لاسيما من كان يفنى لأمة أضيع بها الإسلام بالنبذ و الرفت
نظرت الورى طرا، تحروا رشادهم و لم أنظر الإسلام ينفك عن ست
عن الجهل و الاحجام و البخل و النوى و عن دولة الأفاك، و الأكل في السحت
و عن بدعة الإغضاء عن كل منكر و كم أنب القرآن متبعي الجبت
أيا أمة الإسلام. هلا لصالح تفيضي، أم الإفضاء للغي و المقت
لقد غرك الأنذال، لما توصلت أناملهم للعيث بالدين و التخت
و أضحى زعيم الرشد موقع سخطهم يكيدونه كيدا، فضاع و قد ضعت
ألم تذكري في قرية البحر، إذ عتت على ربها، بالحوت في صحوة السبت
فذاقت وبال الأمر و اندك مجدها إلى حيثما صارت تماما لقد صرت
تمسكت بالأهواء في كل وجهة و في دولة الأهواء قارعة الموت
فما تسمعي إلا لناقض غزله و إن راغ للإحجام يوما، له رغت
و ها الغرب ظن الضعف فيك سجية و كنت التي تعطيه في سالف الوقت[2]

يتجلى تشبع الشاعر بالروح الإسلامية، و تأثره بأفكار الجامعة الإسلامية الداعية إلى الاتحاد و التضامن ضد التكالب و الهيمنة الغربية، فتراه مهتما بالهموم العربية و الإسلامية التي لا تتجزأ حسب منظوره، فهو لا يتوانى عن

[1]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص13، نقلا عن جريدة الفاروق، ع16/12 ماي 1913، الجزائر.
[2]- المرجع نفسه، ص12. القصيدة منقولة من جريدة الفاروق، ع28/5 أفريل 1913.

التعبير على آرائه حول القضايا العربية و قضايا الأمة المصيرية، مثل موقفه من قضايا الشرق العربي في قصيدة بعنوان "يا شرق"، يقول فيها:

يا شرق هل هذي المصائب تنجلي أو ينتهي الغليان من ذا المرجل
يا شرقنا حتى متى تنجلي المنى أم ذي المنى عنوان ما لم نعمل
قد خلتها هيفاء تنفر كالمها و عشيقها أضناه كيد العذل
دنف عراه اليأس حتى قلَبه يقضي السنين بحسرة و تململ
يا شرقنا إني ظننتك ناهضا فجعلت ظني الماء وسط المنخل
يا شرق ما لعقول قومك لا تعي نصحا من الماضي إلى المستقبل
يا شرقنا يكفيك ما هو حاصل فأعد فعال السالفين البسل
و انهض فديتك و اتخذ لك قوة مقرونة بالسعي دون تمهل
إن القوى عند الشدائد تبتغى بالحزم و التدبير ثم الصيقل[1]

2.6. العالم المصلح عبد القادر المجاوي (1848 – 1914):

يتفق جميع الدارسين على أنه من الأيادي البيضاء، الأكثر تأثيرا في الحياة الثقافية الجزائرية، في بداية القرن العشرين، و المسهمين الأفذاذ في تحريك اليقظة و النهضة بالجزائر، بواسطة العلم و المعرفة، و لذلك كرس مجهوده في التدريس، حاضا تلامذته، على ضرورة الجمع بين العلوم الدينية و الدنيوية معا، و الاهتمام باللغات، فكان من هؤلاء التلاميذ: إبنه مصطفى و حمدان لونيسي و عبد الحليم بن سماية و محمد المولود بن الموهوب و أبو اسحاق إبراهيم اطفيش و أبوبكر البوطالبي و أحمد الحبيباتني و حمود الدراجي و أرزقي الشرفاوي و أحمد البوعوني و عبد الكريم باش تارزي و محمد السعيد بن زكري. و بالإضافة إلى مهمة التدريس اشتغل أيضا بالكتابات الصحفية في جريدتي "كوكب إفريقيا" و "المغرب" اللتان كان يعبر فيهما عن آرائه الإصلاحية، و النهضة الجزائرية، كما اهتم بالتأليف كسبيل آخر يخدم رسالته التعليمية و الإصلاحية، فألف العديد من الأعمال المتعلقة باللغة العربية و النحو و الصرف و الاقتصاد و الفلك، و العقيدة... و غيرها مثل كتابي "إرشاد المتعلمين" و "الاقتصاد السياسي"[2]، و يغادر هذا الطود عالم الناس إلى غير رجعة قد تكون طبيعية و قد تكون قسرية بفعل فاعل أراد أن يضع حدا لنشاطه الفكري و العلمي و التعليمي الذي صار يهدد كل ذي مفسدة لا يجترحها إلا في حضور

[1]- عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، ص52، و انظر أيضا صالح خرفي: عمر بن قدور الجزائري، ص10.

[2]- عمر بن قينة: عبد القادر المجاوي-حياته و آثاره-شخصيات و ذكريات، دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1983، ص16.

الظلام و الجهل، و أول هؤلاء فرنسا المستعمرة، فقد روى تلميذه أبو إسحاق إبراهيم اطفيش أنه لم يمت بصفة عادية و أن الاستعمار قد وضع له "و لثلاثة عشر من علماء الجزائر سما في قهوة فشربها و توجع حتى مات"[1]، و لعل هذه الممارسة هي التي أجبرت الكثير من علماء الجزائر و مثقفيها و طلبتها على الهجرة إلى الخارج شرقا و غربا في هذا الزمن الليلي البهيم، و ودعه تلامذته العلماء من بعده و المؤتمون بنشاطاته الدينية و التنويرية المكثفة من عامة الناس و محبيه، و وقف محمد المولود بن الموهوب تلميذه المقرب في مشهد تشييع جنازته المهيب مؤبنا له في خطبة قال فيها: "هذا عبد القادر الذي أكرمنا الله بقدومه من تلمسان منذ خمسة و أربعين من السنين، فأحيا القلوب كالغيث بعد القحط، رحم رب العالمين هذا الشريف عبد القادر الحسني الذي جاءكم بلوعة من المعارف و العلوم و بثها و نشرها و لم يبخل بها على الخصوص و العموم، هذا عبد القادر صاحب الأخلاق الطيبة الذي نور العقول... هذا عبد القادر النصوح الذي زين الوطن الجزائري تلامذته، و عمت بعلمه كل جهة ببركته، هذا أستاذ الجميع عبد القادر الذي ما من عالم إلا و له فضل عليه"[2]، و نشرت جريدة "الفاروق" بعد هذا المصاب مجموعة من المساهمات الشعرية تمدح و ترثي الرجل و تذكر مناقبه في أعداد متسلسلة من الجريدة (إحدى عشر عددا من 82 إلى 92) تحت عنوان: "دموع الشعر و الشعراء على فقيد العلم و الإسلام أستاذ الجماعة المقدس الأستاذ عبد القادر المجاوي". لمجموعة من الشعراء منهم: محمد المولود بن الموهوب، سعد الدين بلقاسم بن الخمار، خليفة الجنيدي، محمد بن جلواح، محمد الميلي بن الشريف... و آخرون.

3.6. الشيخ عبد الحليم بن سماية (1866 – 1933):

لا تخفى على الدارسين إسهاماته الواضحة في بعث اليقظة في ربوع الجزائر و النهوض بالشؤون الثقافية و تنوير العقول الجزائرية، و هو من الذين يبرز في فكرهم و رؤيتهم الإصلاحية، الاقتداء بأفكار الإمام محمد عبده، لأنه الأكثر اتصالا بالإمام و خاصة أثناء زيارته للجزائر و بعدها و احتكاكه به، و لعله الحلقة الرئيسية التي ربطت الحركة الإصلاحية بريادة جمعية العلماء الجزائريين بالحركة الإصلاحية العبدوية من خلال المنظور الإصلاحي لكليهما، و تعاطفه مع حركة الجامعة الإسلامية، و التشبع بأفكارها، و قد تخرج على يديه العديد من الطلبة في مقدمتهم علماء قادوا الحركة العلمية و الثقافية من بعده هم على الخصوص: الدكتور محمد بن أبي شنب و الدكتور محمد بن العربي و المؤرخ الجزائري عبد الرحمن الجيلالي، و إن أهم ما يذكر من أفعال الرجل هو اهتمامه بمقارنة الأديان و محاججة المستشرقين و الفلسفة و معارضة السياسة الفرنسية، و خاصة قانون التجنيد الإجباري (1912)، و

[1]- محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة، دار اليقظة العربية، دمشق، سوريا 1965، ج1، ص82.

[2]- محمد المولود بن الموهوب: جريدة الفاروق، ع9/81 أكتوبر 1914.

المطالبة بإلغاء القوانين العسفية و احترام العادات و التقاليد الجزائرية، و لعل هذه النشاطات هي التي أثارت مخاوف السلطة الفرنسية، فجعلت تضايقه و تضطهده إلى غاية وفاته[1].

4.6. العلامة الشاعر محمد المولود بن الموهوب (1866 – 1935):

يأتي في كوكبة العلماء الذين يستحقون منا التنويه، و الوقوف عند أهم إنجازاتهم العلمية، و بروز أسمائهم في سماء الإصلاح الجزائري في بداية القرن. فقد تحمس هو أيضا لحركة الجامعة الإسلامية و تقمص أفكارها، لذلك جعل اهتمامه بالتدريس الذي هو السبيل الأنسب لتنوير الرأي العام الجزائري و الحث على التمسك بالدين الإسلامي و تخليته من الشوائب التي لصقت به، و محاربة البدع و الرذائل، و له مساهمات عديدة في عملية الإصلاح و النهوض، صحفية و إبداعية و منظومات في النحو و العروض و التوحيد، كما له عدة قصائد و مقطوعات شعرية أنشأها للحديث عن قضايا بلده و الأمة الإسلامية جمعاء، و المحافظة على الهوية العربية الإسلامية، و الأخذ بمحاسن الحضارة الأوروبية لأنه كان مطلعا على التطور و التقدم الذي بلغته المدنية الغربية حيث كان يجمع بين الثقافتين العربية و الفرنسية، و تعد جهوده رفقة العلماء المصلحين، بمثابة اللبنة الأولى لصرح الحركة الإصلاحية المنظمة من بعد[2].

5.6. الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوي (1850 – 1942):

صاحب الكتاب المشهور "تعريف الخلف برجال السلف"، يعتبر هو أيضا من العلماء المصلحين المسهمين بما أوتي من فكر و علم في إصلاح الواقع الجزائري المتردي، و لاسيما التعليم، و مارس إلى جانب التدريس عدة وظائف إدارية و دينية، و منها الإفتاء الذي تلقى بمناسبة توليه مع كره له سنة 1925 الكثير من التهاني من داخل الجزائر و خارجها، عبر الوسائل المحمولة أو المكتوبة في الصحف، و منها قصيدة وردت من القاهرة نقتطف بعضا مما قاله صاحبها الحسين بن أحمد البوزيدي أحد علماء الأزهر:

لله درك فـــــردا في شمــــائـلــــه ... ذا رقة تتـهـادى مـدحه النجـــب

يهل شخصك في إنسـان باصـرتي ... فيستفـزني الاعجــاب و الطـرب

سموت للمـجـد وثـابـا بفـاضلـة ... تبــارك الله نـبــل زانــه حـســب

سلالة "الغول إبراهيم" من وجدت ... فيــه الكـفاءة للافتـا كمـا يجــب

---

[1]– مولود عويمر: الشيخ عبد الحليم بن سماية، جريدة البصائر، ع17/531 جانفي 2011.

[2]– محمد الهادي الزاهري السنوسي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، إعداد و تقديم عبد الله حمادي، دار بهاء الدين للنشر و التوزيع، قسنطينة، الجزائر 2007، ج2، ص51-77.

سموت فضيلة "حفناوي" بنيل منى كما سما في السماء السبعة الشهب

و يضيف قائلا:

و انظر لأم تلاشى مجدها هدرا فمن لإحياء هذا المجد يرتقب
إن لم تكن همة المفتي فلا أحد يسعى لإحياء ما أودت به الحقب
و لا تدع أمة ماتت معارفها على ذهاب تليد المجد تنتحب
حتى فشى الجهل في أبنائها و غدا يسطو عليهم و حق العلم مغتصب
فانهض إلى رده رغما لمغتصب حقا بواسطة التعليم يجتلب
وبث في أمة علما تسود به فوصمة الجهل في أبنائها وصب[1]

و تجدر الإشارة إلى أن الشيخ تعرف إلى الإمام محمد عبده، على ظهر الباخرة التي تقلهما إلى الجزائر، في صيف سنة 1903 بعد عودته من مهمة إدارية، كلف بها من قبل الإدارة الجزائرية إلى فرنسا، من خلال محادثته و مآنسته، طيلة مدة السفر في عدة مواضيع علمية و قرآنية، فطلب منه الإمام كتم هذا اللقاء تحسبا للدسائس و المؤامرات التي يحيكها له خصومه لإبطال زيارته للجزائر و إجهاض أهدافها، و ما يجدر ذكره أيضا أن أبا القاسم الحفناوي كان يجمع في ثقافته بين العربية و الفرنسية مما مكنه من الاطلاع على الكثير من العلوم العصرية، و استخدامها في مساره العلمي و التعلمي و الإصلاحي[2].

6.6. محمد بن أبي شنب (1869 – 1929):

كان له باع في طلاب العلم و التبحر فيه، من خلال دراسته الأكاديمية بالمؤسسات الرسمية، فكان له حظ في الاطلاع و التعرف على العديد من الثقافات، و تعلم عدد من اللغات إلى جانب اللغة العربية، و واصل تعليمه العالي بجامعة الجزائر و تحصل منها على شهادة الدكتوراه سنة 1920 ببحث حول الشاعر العباسي أبي دلامة، و اشتغل بالتدريس في عدة مؤسسات مثل مدرسة سيدي الكتاني بقسنطينة سنة 1898 خلفا للأستاذ عبد القادر المجاوي، و المدرسة الثعالبية سنة 1901، و بجامعة الجزائر سنة 1908. كان شديد الاهتمام بالأعمال و الإنتاج التراثي من خلال التحقيق و النشر، و التعريف بالعلماء الجزائريين و المغاربة و الأندلسيين، و له عدة مؤلفات معرفية في التاريخ و الأدب و الترجمة باللغتين العربية و الفرنسية، و لكنه كان يعتز كثيرا بعروبته و إسلامه، في لسانه و خصاله و هيئته، و ما الثقافة الفرنسية عنده إلا مكسب يجب الاستفادة منه، و اتقاء شر أعدائه

[1]- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام- قسم من مشاهير الجزائر، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1974، ج4، ص425-435.
[2]- المرجع نفسه، ص ن.

بوساطته. و نشط كعضو في عدد من الهيئات العلمية كالمجمع العلمي العربي بدمشق، و المشاركة في العديد من المؤتمرات الفكرية و العلمية، داخل الجزائر و خارجها و يبدو متأثرا بأفكار الشيخ محمد عبده و خاصة بموقفه من السياسة، و كأنه يتمثل قوله: "أعوذ بالله من السياسة و من لفظ السياسة"، لكنه إن لم يظهر ممارسا لها فعلا فإن فكره و أخلاقه و هيئاته كانت تحمل دلائل منظوره للشخصية و للأصالة و المحافظة. و إسهاماته العلمية النهضوية تشهد له على ذلك في كل زمان و مكان[1].

7.6. عمر راسم (1884 – 1959):

اشتهر هذا المصلح النهضوي بالذود مجاهرة عن حياض الإسلام و العروبة من خلال كتاباته الصحفية الجريئة، التي تسببت له في الزج به في غياهب سجون المستعمر، و مصادرة جرائده المعادية صراحة للإدارة الفرنسية. كان شغوفا بفن الخط و الرسم و الصحافة فأبدع في كل منها و سخرها لخدمة فكره الإصلاحي، الذي كان يحتذي خطى الإمام محمد عبده حذو النعل بالنعل، حيث كانت جريدته "ذو الفقار" (1913) لسان حال الإصلاح في الجزائر، على منهج الحركة العبدوية، دالة على تشبعه و افتتانه بها، و اقتفاء أثرها بكل صدق و إخلاص، و كان كثير المناوءة و الاعتراض على الفرنسيين، و على سياستهم المتعسفة و المجحفة في حق الجزائريين المسلمين، و التمرد على قوانينهم، و خاصة قانون التجنيس. كما كان منتقدا لاذعا لبني جلدته، الذين رضخوا للابتزاز و الإغراء، و خاصة المفرنسين منهم، شديد المحاججة لهؤلاء و هؤلاء بلغتهم التي كان يتقنها، لكنه شديد التعلق باللغة العربية، و بالشخصية الإسلامية، و بالشعب الجزائري، فكان غيورا و داعيا إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية و محاربة الآفات و الرذائل، التي تفتك بالأفراد، و خاصة الشباب منهم. و التضامن مع الفقراء و المساكين. و بناء المدارس، فكان مصلحا حقا في كل المجالات[2].

---

[1]- عبد الرحمن الجيلالي: محمد بن أبي شنب- حياته و آثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص14، و انظر محمد صالح الصديق: محمد بن أبي شنب (1869-1929)- أصالة و حداثة..إيمان و أخلاق و علم، مجلة الثقافة الإسلامية، ع2005/1، الجزائر، ص127، و انظر أيضا عبد الكريم بوصفصاف و آخرون: معجم أعلام الجزائر، منشورات مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة الإخوة منتوري، ج2، ص153.

[2]- محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية-نشأتها، تطورها، أعلامها (1903-1931)، ط1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1978، ج1، ص73.

8.6. محمد بن رحال (1857 – 1928):

يدرج هذا الرجل المثقف المزدوج اللغة ضمن العلماء المصلحين في الجزائر، رغم اتجاهه النخبوي، لغيرته على وطنه و لمساهمته في تشكيل الحركة الوطنية الجزائرية، و إصلاح و تطوير المجتمع بما يتماشى مع تقدم العالم، و القضاء على أسباب التخلف، و المطالبة بحماية حقوق الجزائريين و حماية الشخصية العربية و الإسلامية، من عسف المستعمر، و لأجل ذلك استغل كل الإمكانات التي أتيحت له فانخرط في المجالس و الجمعيات و الهيئات، للدفاع عن الجزائريين اتجاه القوانين الفرنسية الجائرة، كقانون التجنيد الإجباري و التجنيس، و هو من الدعاة إلى لم شمل الجزائريين و توحيد مواقفهم، من خلال التفاف الأحزاب السياسية الوطنية حول جبهة واحدة، و الرافضين لقصر التعليم على اللغة الفرنسية فقط، لأن في ذلك ضربا للغة العربية و هدرا للدين الإسلامي، فكان من الداعين إلى تعميم التعليم العربي للذكور و الإناث على حد سواء، فذلك كفيل بالتجديد و النهضة، إذ نستشف هذا من أحد أقواله: "إن الدولة الإسلامية متأخرة و مجزأة، لكن انتشار التعليم يجعلها تستعيد مكانتها في العالم"[1]، لأنه السبيل إلى إنارة العقل و الاهتداء إلى ما هو أحسن من التقدم و الرقي في العالم، و الدين الإسلامي لا يتعارض مع ذلك، فكان حريصا على تطوير الفكر و تحرير العقل الجزائري، و الأخذ بكل أسباب التحضر و التقدم، حتى و لو كان من الحضارة الغربية، دون إيغال في التقليد و الانبهار، و هذا ما ينبي عنه قوله: "صحيح أنه لا يجب أن يقبل كل ما تمنحه لنا الحضارة بعيون مغمضة، فكثير من الأشياء التي لا تحسد عليها، و يمكن أن تترك دون كبير أثر، و لكن يمكننا بالمقابل أن نستعير عددا كبيرا من منتجاتها دون خطر، بل بفائدة و على حسابنا الخاص، و نستطيع أن نتبنى كل ميادين العلوم البحتة، و جزءا هاما من التنظيم الداخلي و السياسي، و نظام الأشغال العمومية و التعليم، و كل ما يتعلق بالتجارة و الزراعة و الصناعة، بدون تعديلات كبيرة، فلا شيء في العقيدة، بل بالعكس إنه يحثه و يفرضه"[2]، فبناء الفرد و المجتمع كان مركزا اهتمامه، لذلك سخر فكره و علمه لتحقيقه فكتب عدة دراسات من شأنها أن تنمي اليقظة و النهوض و تصلح الأوضاع، عنيت بالتعليم و التاريخ و الإسلام[3].

---

[1]- عبد القادر جغلول: تاريخ الجزائر الحديث- دراسة سوسيولوجية، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت، لبنان 1983، ص113.

[2]- المرجع نفسه، ص70.

[3]- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج4، ص463، و انظر أيضا عبد المجيد بن عدة: المثقف الثائر محمد بن رحال (1857-1928)، حولية المؤرخ، ع2005/5، دار الكرامة للطباعة و النشر، الجزائر، ص156.

7. شيوع الطباعة و انتشار الصحافة:

للطباعة أيضا أثر في إيقاظ الحس الثقافي و نشوء النهضة الفكرية و الأدبية، حيث بدأت رسمية، لكنها انتشرت بعد أن صارت وطنية، بفعل الجهود الشخصية التي شجعت انبعاث هذه الوسيلة الحيوية، ففتحت الأبواب المشرعة أمام مختلف الإصدارات، و لاسيما كتب التراث العربي و الإسلامي، و من هذه المطابع: المطبعة "الثعالبية" (1895) لردوسي قدور و مطبعة "البعث" بقسنطينة (1920) للشيخ عبد الحميد بن باديس و مطبعة "النجاح" (1919) لعبد الحفيظ بن الهاشمي و "المطبعة العربية" لأبي اليقظان (1920) بغرداية، حيث كانت هذه المطابع فتحا مبينا لانتشار الثقافة و الفكر و الأدب من خلال تدوين الأعمال و الإنتاج، الذي كان كالسيل العرم الوافد على هذه المطابع، التي منحت دفعا قويا للحركة الإصلاحية النهضوية بالجزائر، و تنشيط الكتابة عامة و الصحفية بصفة خاصة، حيث ظهرت عدة جرائد و مجلات عملت على إثراء الحياة الثقافية و الأدبية، بعدما كان الكتاب و الأدباء الجزائريون ينشرون إنتاجهم في الصحف العربية خارج الوطن، لندرتها من ناحية و لمصادرة حرية الرأي من قبل السلطة الاستعمارية من ناحية أخرى، لكن الأقلام الجزائرية الجريئة كانت تمارس نشاطها الصحفي دون توقف و لا هوادة، و إذا ما صودرت الجريدة أو المجلة راح صاحبها ينشئ أخرى تحت اسم جديد، حتى لا يتوقف الرأي و الوعي الذي انطلق في الجزائر دون رجعة، و حتى تمارس آلة الكتابة و الإبداع نشاطها باحثة عن كل جديد، مثل صحف إبراهيم أبي اليقظان الذي ما فتئ ينشئ صحفه الخاصة، التي لعبت دورا هاما في الحياة السياسة و الثقافية و الفكرية، و هو الدور الذي لعبته الصحف الجزائرية الأخرى منذ ميلاد أول صحيفة جزائرية تنشر الأدب العربي و تشجع الشعراء و تتحدث عن قضايا الشعب اليومية و تنشر الثقافة و هي جريدة "كوكب إفريقيا" لصاحبها محمود كحول سنة (1907)[1]، ثم تلتها صحف و مجلات كثيرة كـ"الجزائر" (1908) و "الحق" (1911) و "ذو الفقار" (1912) لعمر راسم، و جريدة "الفاروق" لعمر بن قدور (1912)، و كذا الحركة الصحفية النشطة التي عرفتها جمعية العلماء المسلمين. كل تلك الصحف ساعدت على نشر الشعر بين القراء، و أسهمت في تكوين طائفة من الأدباء و الشعراء، الذين حملوا هموم أمتهم، فعبروا عن قضاياها بكل صدق[2]. و قبل هذه الانتعاشة التي عرفها المجال الصحفي و الإعلامي في الجزائر في بداية القرن العشرين، كانت الصحافة المشرقية و المغاربية هي المغذية للوعي و اليقظة بالمجتمع الجزائري، بما وجدته من شغف و إقبال شديد على قراءتها، و إتاحة صفحاتها

[1]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص365.

[2]- عبد الله الركيبي: الأعمال الكاملة- الشعر الديني الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر 2011، م1، ص48، و انظر أيضا عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1982، ص96.

للأقلام الجزائرية المقهورة حيث وجدت فيها الفضاء الرحب، الذي يطلق اللسان للتعبير عما يعتلج في الصدر، و ما يخالج النفس من مشاعر أنهكها القهر، كما وجد فيها القارئ خير معبر عن همومه، و مجتلى آلامه و أحزانه، فالصحافة المشرقية استقطبت جمهورا كبيرا من الجزائريين ينتظرونها بشوق، كمن ينتظر عزيزا طالت غيبته و بعاده، و يحرصون على التواصل معها مثل صحف: "اللواء" و "المؤيد" و "المنار" و "الهلال"، رغم التضييق و المراقبة، بل إن كتابا و أدباء من الجزائر، ينشرون آراءهم الفكرية و نصوصهم الإبداعية، و يعلون عقائرهم بواسطتها، كما فعل عمر بن قدور الجزائري، و كثيرا ما كانت هذه الصحف العربية المشرقية مثار جدل و استياء و تذمر السلطة الفرنسية، من خلال فضحها للممارسات اللاإنسانية في الجزائر، و الدفاع عن مصالح المجتمع المغلوب على أمره، كما فعلت الصحف المغاربية الدور ذاته، بل إن اتصال الجزائريين و الكتبة النشطين منهم على وجه الخصوص ،كان أكثر و أوفر بتونس من غيرها، و لعل السبب هو التقارب و الترابط أكثر في عدة وجوه، زادته قوة الهجرة المكثفة لطلب العلم و المعرفة، فلم يكن إقبال هؤلاء المتعلمين و المثقفين على الدوريات للقراءة و التلمذة عليها فقط، بل للمشاركة في تنشيطها، و تحريك أفكارها و إثرائها، و إنشائها أحيانا، من خلال الترسل من داخل الجزائر، و من خلال الحضور الفعلي داخل تونس، حيث صارت تربط بين الأشقاء علاقات فكرية و أدبية وطيدة مثل علاقة عمر بن قدور و الطيب بن عيسى القرواوي من خلال جريدتي "المشير" (1911) و "الوزير" (1920)، و علاقة الطيب العقبي و أحمد حسين المهيري من خلال جريدة "العصر الجديد" (1920)، "هذه المراسلات كانت في معظمها مراسلات أدبية تتضمن مقالات فكرية أو قصائد شعرية أو قصصا أو مسرحيات، و في بعض الأحيان التي يضطر فيها المراسل إلى كتابة ما من شأنه أن يثير فضول السلطة، فإن الجريدة كانت تنشر ذلك الأثر باسم مستعار أو غفلا من التوقيع"[1]، و كانت هذه الصحف في النهاية وعاء تراث أدبي هام يتضمن قصصا و شعرا و مقالات، مثلت هذه الفترة التي انتعشت بعد انتكاسة و لولاها لبقي الأدب الجزائري يرزح تحت وطأة الضعف و الانحطاط، و لما تخلص الشعر من أسر أساليب المتون الفقهية و المنظومات العلمية التي لا ماء فيها و لا رواء. و ربما ستكون هذه الذخيرة مهددة بالضياع و عرضة للتلاشي[2]، مثلما هو شأن كم هائل من النصوص التي ضاعت بسبب عدم اكتراث أصحابها أو مصادرتها و إتلافها بعدما وقعت عليها يد المستعمر، أو بتفريط من أهل صاحبها بعد وفاته، أو بقيت في أدراج النسيان، لم تتمكن يد الباحثين من الوصول إليها.

[1]- محمد صالح الجابري: الأدب الجزائري المعاصر، ط1، دار الجيل للطباعة و النشر و التوزيع، 2005، ص15.

[2]- المرجع نفسه، ص16.

و على حين غفلة من المستعمر أو بسبب الرعاية الربانية و حكمة صاحبي مجلة "الشهاب" و جريدة "البصائر"، تضطلع هاتان الدوريتان بتغطية حاجة المثقف الجزائري المتعطش و المتطلع للتجارب الأدبية الراقية القديمة و الجديدة، و الأفكار الحديثة، و المتابع عن كثب للأحداث و الوقائع المستجدة في الجزائر و في العالم من حولها. فمجلة "الشهاب" (1925) "لم ير الناس في الجزائر مجلة أو صحيفة يومية أو أسبوعية مما غبر و مضى من المجلات و الصحف الكثيرة، استأثرت بقلوب المفكرين الجزائريين، و اشتد حرصهم على اقتنائها أو الإلمام بها، مثل مجلة الشهاب... إن مجموعة هذه المجلة عبارة عن دائرة معارف جزائرية بالمفهوم الواسع، إذ يظفر فيها القارئ بكل ما يتصل بالسياسة الجزائرية، و الثقافة الجزائرية و النهضة الجزائرية، و المجتمع الجزائري بوجه عام، أثناء حقبة معينة من التاريخ"[1]، و لسموق قيمتها الفكرية و الأدبية و علو كعبها في العلم و الثقافة، امتدحها الشاعر محمد بن بسكر قائلا:

حي الشهاب و حي الشيخ باديسا و اسأل له الله توفيقا و تأنيسا
و قل رعاك الذي أعطاك موهبة حزما، و عزما و تأليفا و تدريسا

و يواصل ثناءه و إطراءه على المجلة، واصفا محامدها فيقول:

سار الشهاب على رغم الحسود خطى يطوي المراحل تأويبا و تغليسا
لله أنواع أتعاب يزاولها قد تمنع المرء تهويما و تعريسا
في بحر خمسة أعوام أنار لنا روحا مكهربة، أذكت فوانيسا

* * *

رعيا لعيدك عيد الشعب أجمعه فالشعب أنت و ليس الشعب باديسا
فاهنأ به و بعيد الفطر زانهما عيد الربيع وشي للروض توريسا
عاش الشهاب و عاش المصلحون له و مات مبغضهم في الله تنكيسا[2]

أما جريدة "البصائر" (1935 – 1939) – (1947 – 1956) و نقصد بها الأولى و الثانية، فهي تعنينا كوجه من وجوه اليقظة و النهضة الأدبية قبل كل شيء في بدايتها بالجزائر، و أثر من آثارها، فقد ساهمت هي أيضا في الارتقاء الأدبي و اللغوي إلى أبعد حدود الأناقة و الإبداع، بل يمكننا اعتبارها مدرسة البلاغة و اللغة المشرقة، إذ "لم يكن الإبراهيمي متساهلا مع كتاب البصائر، فقد كان يغريهم بالتجويد في الأسلوب و يزجي بهم أن يرتفعوا

[1]- عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص106.
[2]- المرجع نفسه، ص107.

إلى المستوى العالي من فن القول. و يستطيع الباحث في الصحافة العربية المعاصرة في الجزائر، أن يعتبر البصائر أرقى صحيفة عربية ظهرت في وطننا حتى الآن، من حيث الأناقة اللفظية و الروعة الأدبية"[1].

في هذه الأجـــواء التحفيـزيـة نشطت الكتـابة الأدبية في كثير من الألوان التي تستوعبها صفحات الجرائـد، و سلك الشعر طريقـه نحو الفحولة، و ظهرت أسماء لامعـة كثيـرة نـالـت قسطـا وافرا من الحظـوة و الرعاية، فصارت كبيرة و مشهورة بإنتاجها الذي ملأ الفضاء الشعري الجزائري، و ضاهى صنوه المشرقي.

8. النوادي و الجمعيات الثقافية:

أسهمت النوادي و الجمعيات هي أيضا في إنعاش الوعي و اليقظة و ساعدت على انتشار الثقافة و العناية بالأدب و الشعر، بـإتـــاحة أجـواء التنـافس على الإجادة، بالإضافة إلى الندوات و المحاضرات التي تنمي الذوق و توجه التجارب الناشئة نحو الإبداع الجيد، و كانت هذه النوادي و الجمعيات منابر لتداول الخطباء و مسارح لتناظر الشعراء، و هي أشبه إلى حد كبير بعكاظ و المربد بالبصرة، و أشهر هذه النوادي ناديان معروفان آنئذ هما: نادي "صالح باي" (1907) بقسنطينة و نادي "الترقي" (1927) بالعاصمة، اللذان كان لهما دور هام "في الحياة الأدبـية و الثقافية و في الدعوة لإحياء اللغة العربية و الثقافة القومية، مع ما صاحب هذا من حديث عن المسرح و حاجة المجتمع إليه و من تكوين فرق تمثيلية أسهمت في النهضة الأدبية و الاجتماعية"[2]، لكن نادي "الترقي" هو الذي توفرت فيه مواصفات العصرنة و الانضباط و التنظيم المحكم، فقد "كان ملتقى السياسيين و جمهور العلماء و المثقفين، و كان مثابة للأدباء و الشعراء، تلقى فيه الخطب الحماسية و القصائد الرائعة و الأبحاث الهامة في مستواها الشعبي أحيانا، و في مستواها العلمي أحيانا أخرى، و من الشعراء و الأدباء الذين لمعوا فيه و ذاع صيتهم منه: محمد العيد و العمودي و بوكوشة و الزاهري و السنوسي و البدوي و أبو اليقظان... و قد قال فيه الشاعر محمد العيد يخاطبه:

صفت بساحتك الوجوه و رددت فيـك الحـكم
فرأيت ما يجلـو العـمـى و سمعت ما يجلو الصمم
و دخلت ظلك أستجير بـه و أنـعـم مـن أمـم
و أتيت ميدان اللسـان بـه و ميـدان القـلـم"[3]

---

[1]- المرجع السابق، ص112.

[2]- عبد الله الركيبي: الأعمال الكاملة، م1، ص49-50.

[3]- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص116.

و يبدو أن النوادي كثيرة إلى حد أنها توجد بكل مدينة، و يشير الشيخ البشير الإبراهيمي إلى هذا الكم الهائل إلى أن جمعية العلماء وحدها كان لديها ما يربو عن السبعين ناديا، و مثلها في الأحزاب الأخرى كحزب "الشعب" و حزب "البيان"[1]، و نادي "الشبيبة الجزائرية" بتلمسان، و هناك نوادي أخرى، لكنها لم تكن في حجم هذه النوادي السابقة مثل نادي "الإقبال" بجيجل و نادي "الآداب العربية"، و هناك جمعيات اشتهرت باستقطابها لفئات مثقفة معينة لكنها جميعا كانت لها أياد في نشر الثقافة و النهوض، و إعادة بعث المجتمع من مرقده أهم هذه الجمعيات، الجمعية "الراشدية" (1894)، و تتكون من شباب جزائري درس بالمدرسة الفرنسية، لكنه يهتم بالحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية، و غرس القيم الوطنية و نشر الثقافة الإسلامية، و بقيت تمارس نشاطها إلى غاية 1907.

و الجمعية التوفيقية (1908) التي تضم فئة المثقفين المفرنسين الذين يميلون إلى التطور و التقدم و مجاراة الدول الأوروبية.

و لاشك في أن هذه الحركة الدؤوبة المتعددة الألوان و المشارب، و المفعمة بالحرص الشديد على النهوض بالجزائر في تلك الحقبة العصيبة، أنجبت جيلا غاضبا و ثائرا من الشعراء سعى لإعادة بناء مجتمع جديد متعدد المواهب، تسوده الحرية التي ظل يحلم بها و يطالب بها، في كل المسارح و على كل المنابر، حتى تحقق الحلم و صار حقيقة بعد اندلاع حرب كان وقودها الأبرياء و منهم الشعراء، الذين ظل سعيهم فيها من أجل تحقيق كرامة سلبت، و حرمات انتهكت. و الجدير بالذكر أن عدد العلماء الذين أسهموا في إيقاظ الوعي و شحذ همم الجزائريين، أكبر من أن نحصرهم في هذا المقال، لكننا اعتمدنا ذكر بعض الأسماء التي خدمت الأدب و الشعر، و أسهمت في إثرائه بتجاربها الشخصية.

[1]- المرجع السابق، ص117.

نهضة الشعر الجزائري في القرن العشرين

تمهيـد:

يـأفـل نجم الأمير عبد القادر و الشعراء الذين عاصروه، فيستفحل الداء مرة أخرى، و تهزل اللغة العربيـة و تتعقد الألسنة و تنتشر العجمة، لكن جذوة من نار الرفض مازالت متقدة هنا و هناك، و غريزة حب التغيير مازالت متجذرة، و ما إن انبلج فجر القرن العشرين حاملا معه رياح التغيير، حتى هبت النفوس و تيقظ الإحساس و فزعت الأرواح تستقبل الجديد المشرق، و لعلنا لا نستطيع أن ندرك مغازي التغيير الممارس في المجتمع الجزائـري على كـافة الأصعدة، و لاسيـما الصعيد الشعري، دون أن نربطـها بالواقع المحيـط بها، و بالظروف التي أسهمت في تشكيلها من داخل الجزائر و خارجها.

و يشهد الشعر الجزائري تحولا جذريا من مرحلة ضعف فيها المستوى الأدبي و الشعري، و شاعت فيها الركـاكـة و يئست النفوس من كل شيء فقل اهتمامها بالشعر، و بالأساليب اللغوية و البلاغية الرصينة المعروفة في الأشعـار سـابقـا، فصدق الشيـخ البشير الإبراهيـمـي حين قيـمها عبر مجلة "الشهاب" (1934) قائلا: "و قـد اطلعنـا على أكثـرهـا فإذا هي من لون واحـد، و إذا هي منصرفـة في الغـالـب إلى مدح المشـايـخ و الكبـراء، و إذا هي أخت الأشعار الملحونة الرائجة في السوق، لأنها منـقـطعة الصلة بالشعر في أعـاريـضـه و أضربه، و منقطعة الصلة بالخيال في تصرفه و اختراعه"[1].

وضعية الشعر في بداية القرن:

ينتقل الشعر إلى مرحلة أخرى تشرق فيها أنوار النهضة، فيشرق معها المستوى الشعري و يتنامى التعاطي مع راهن القصيدة العربية الحديثة، فيثمر أشعارا رفيعة تذكر القارئ بالأساليب العربية القديمة، و شعراء أعادوا للقصيدة العربية في الجزائر بريقها و للغة العربية رونقها، و صدق الشيخ مبارك الميلي حين عناهم بقوله: "شعر شعـراؤنـا بحيـاة جديدة فنـفضـوا أيديـهم من ذلك الأدب البالي المشوه بلغة التأليف و نفذوا إلى الأدب الغض، و استمدوا من شعورهم الرقيق الطاهر، و على أمثال هؤلاء الشباب نعلق آمالنا في تجديد الأدب الجزائري، و رفع مستواه. أقول هذا، و بين يدي كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، يحمل من الصور الاجتماعية، ما هو جدير بأن يكون أساسا لحياة جديدة"[2]، ثم يسترسل في تعليقه على مضمون هذا الكتاب فيقول: "أعجبني من هذا السفر الجليل

---

[1]- صالح خرفي: المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، ص103.

[2]- محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص14.

أو إنجيل أدب هذا الجيل، ما حواه من أدب رائع، و بلاغة ساحرة، و بيان فتان في مواضع هي مبعث الحياة، و قوام الوجود، و أكبر سروري به أنه جمع –لأول مرة– بين أدبائنا الذين تقلهم أرض واحدة، و تظلهم سماء واحدة، و يتنفسون في هواء واحد، و يتمتعون بخيرات وطن واحد"[1]. و بناء عليه يمكننا أن نعتبر ديوان "شعراء الجزائر" مؤشرا هاما على هذه الانتقالة الحاسمة، و ملمحا لانتفاضة مفصلية، و ضوء أخضر لسلوك منهج مغاير للذوق الشعري متحرر من القيود البالية، و المنفتح على كل جماليات حديثة، بدأت تتشكل بتشكل ملامح التغيير في المجتمع الجزائري منذ بداية القرن العشرين (1900م)، فأعاد الشعر الجزائري همته و حيويته و أعاد الثقة في نفوس الجزائريين بأن هناك نهضة أدبية تكشف عن نفسها و تحاول التأثير في الحياة الاجتماعية، و توجه الفرد توجيها صحيحا يعتز معه بلغته و دينه و عروبته، و صارت القصيدة محل حديث و إعجاب عدد لا حصر له من القراء و النقاد، ينوهون بها في الصحف و يشيدون بصاحبها، و يتتبعونها بشوق حار، و صارت حينئذ نعم الاحتراف، و صار الشعر الأجدر بالاهتمام، هو الذي يظهر فيه الشاعر براعة تبعث اللغة العربية من مرقدها و ترقيها بعد انحطاطها، و تدافع عنها و عن الدين الإسلامي و العروبة، ضد الحملة الاستعمارية الصليبية، و الاهتمام أيضا بواقع الشعب، و التعبير عن المشاعر الوطنية التي بدأت تظهر محتشمة في البداية و بطريقة حذرة، و أخذت الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي تعلو صارخة حينا و خافتة حينا آخر، فحورب الجهل و مدح التقدم، و أهيب بالشعب للتعلق بالمقومات الشخصية، و الأخذ بأسباب الحياة المعاصرة، و من شعراء الصحوة و النهضويين، الذين جهروا بإصلاح حال المجتمع، الشاعر المصلح محمد المولود بن الموهوب –سبقت الإشارة إليه– حيث تصدى بالقول و الفعل للأمراض الاجتماعية التي كانت تنخر كيان و هوية الأمة الجزائرية، و من شعره الذي يتناول هذه المضامين قصيدته المشهورة الموسومة: "المنصفة"، نقتطف منها بعض الأبيات:

صعود الأسفلين به دهينا ... لأنا للمعارف ما هدينا
رمت أمواج بحر اللهو منا ... أناسا للخمور ملازمينا
أضاعوا عرضهم، و المال حبا ... لبنت الحان فازدادوا جنونا
تواصوا بالتنافر فاطمأنت ... لحقدهم قلوب الكائدينا
فكم أكل العقار عقار قوم ... أصولهم له أفنوا سنينا
و كم ساق الكحول إلى أناس ... كحيلا مثل جمعهم أهينا
و كم رقم القمار على بيوت ... ديونا وفق قول الغالبينا

[1]– المصدر نفسه، ج ن، ص ن.

و كم داس الربا أعناق قوم   و لولاه لسادوا منعمينا[1]

و يواصل الشاعر ذكر الآفات و البدع التي انتشرت في المجتمع الجزائري و لاسيما القسنطيني، و توشك أن تقضي عليه، لكنه يناشد الشعب بما بقي فيه من نخوة، بضرورة العودة إلى الدين الصحيح، و الأخلاق الفاضلة، و التسلح بالعلم و القرآن، و الاقتداء بالسلف الصالح الذين صنعوا التاريخ و الأمجاد، إلى آخر بيت في القصيدة المحتوية على إثنين و سبعين (72) بيتا فيعدد بعض الخرافات قائلا:

و سل "زارا" و "نسر مسيد طبل"   و "زينتنا" تبيع التابعينا

و سل عنا السلاحف في غراب   و أعطارا تراق، عائمينا

و سل غابا لحكم الجن أضحى   يقينا، كل ضر قد يقينا

و سل ذاك الحمام لدى حمام   تذبحه بلا اسم عامرينا

و سل سدرا به خرق أنيطت   و غيرا، حيث نفزع ناذرينا

و سل بدعا نبدع ناكريها   و نحمل في إقامتها الديونا

ولائمنا، ولائمنا عليهما   ننفذها و ندعوه المهينا

نعظم من تكهن دون نكر   و نحقر من يعرفنا اليقينا

و نفزع للخطوط لعلم الغيب   فهل جئنا لعلم فازعينا[2]

و لعل هذه القصيدة التي هاجمت الخرافات و البدع المستشرية و ذمت الجهل و الرذائل و دعت للفضائل، تعد الأولى من نوعها، و الانطلاقة الفعلية للشعر الإصلاحي الذي كرس جهوده لمحاربة الآفات فيما بعد، و خاصة بعد ميلاد جمعية العلماء (1931)[3]، و رغم إنتاج الشاعر النادر[4]، و لعله مقل في قرظ الشعر بسبب كثرة اهتماماته، إلا أنه يعتبر صورة حقيقية لطبيعة شعر المرحلة، و يدل على أنه يتمتع بنفس قوي و روح مبدعة رغم ما اعتور شعره من جفاف و لهجة خطابية، نستشف ذلك في قوله أيضا في قصيدة أخرى بعنوان

"أبناؤه أنباؤه":

طاب الحمام يا ولد   سبحان ربي الصمد

---

(1)- المصدر السابق، ج2، ص69.

(2)- المصدر نفسه، ج ن، ص70-71.

(3)- عبد الله الركيبي: الأعمال الكاملة، م1، ص676.

(4)- المرجع نفسه، ص ن.

تبكي الدمـاء أسفـا و عاجـز له يـرد
أين التعـاون الـذي به الجميع كالجسد؟
أضاعه الشـقا فـما أقبحه من معتمـد
هـدم أسـه خـلا ف جمره قد اتقـد
فمـا هنـاك أحـد إلا عن الدين شرد
هل أبصرت عيناك ما بصرت في كل أحد
من سنـن مهجـورة و بـدع لا تنتـقد
و من حيـاء بالخمـو ر قتله قـد اطـرد
و من قمـار شائـع ثمـاره شـر يعـد
و من سفاح بافتضـا ح زاده إهمال حـد
ومن نفـاق و شـقـا ق و فساد المعتقـد[1]

و من شعراء الحقبة الذين أرخوا للفكر الإصلاحي و انتقدوا الواقع الاجتماعي الوطني و العربي و الإسلامي و دعوا للرجوع للدين الصحيح، الشاعر المصلح عمر بن قدور الذي يظهر في كثير من أشعاره رافعا لواء الإصـلاح، و متألما لما يشهده من ترد و تخلف بسبب الابتعاد عن الدين و عن الأصالة، و قد ذكرنـا بعضـا من هذه الأشعـار الدالـة على هذه المضـامين سـابقـا و لا بأس من ذكر بعض آخر هنا مثل قصيدة "الضمير و الإصداع" التي يتجلى فيها موقفه الصريح من المسلمين الذين أهملوا دينهم، فيعبر عن تذمره و امتعاضه منهم فيقول:

أف لهم شذوا عن الحق جهرة و خبوا على الإسلام و هو عتيق
و لذا تراني من شديد تذمـري أبدا أصيح و في الفـؤاد حريـق[2]

فرغم الخطابيـة و المباشرة اللذان يميزان أسلوب الشاعر إلا أنه قوي و متين و دال على طول نفس الشـاعر، بالإضـافة إلى صـدقه، الذي يرشح في نفسـه و يعبر عن معاناة ذاتية حقيقية، كما في قوله في قصيدة

"قلب الأواب":

لا تفتـنيه فـإن الوجـد يشـغلـه و الجـد يمـلـكـه، و الحـق يعـقله
و اللهو ينكره، و اللـؤم يبـغضـه و اللغـو ينبـذه، و الخيـر يأمـله

[1]- محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص66.

[2]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث- الملحق الشعري، ص11، مأخوذة من جريدة الفاروق 7 مارس 1913.

قلـب لـه أرب، أعـلى مـراتـبـه أن يبصر الشعب و الإصلاح يدخله
رحماك يا رب. كم أنشأت من ذمـم إلا و ديـنـك بـالإزراء تهـمـلـه[1]

لكن التجديد الذي يتبدى لقارئ قصائد عمر بن قدور، هو المسحة الرومانسية التي تغطي أشعاره المتألمة و الحزينة، و تبدو فيها عاطفته، التي تقترب من العاطفة الرومانسية في شجوها و حزنها، لكننا نعتقد أنها لم تكن مقصودة لذاتها، و خاصة عناوين القصائد التي يختارها مثل: "دمعة على الملة" – "نفثات مصدور" – "أنين الضمير" – "القلب الأواب"... و هلم جرا، و الشاعر لم يكن يهتم بالقضايا الوطنية فقط، بل كان يصرف اهتمـامه أيضا بالقضايا العربية و الإسلامية، فينحو منحى فكرة الجامعة الإسلامية، و له مجموعة من القصـائد التي يمكن تصنيفها ضمن الشعر القومي مثل قصائد: "فتاة طرابلس الغرب" و "حرب البلقان" و "تاريخ الصحافة العربية"... و غيرها، و يواصل الشعر مساره نحو النمو و التطور على أيدي الشعراء، من خلال مجهوداتهم الفردية المتأثـرة بالإنـتـاج الشرقي، إلى أن يغزر الإنتاج الشعري بنبوغ عدد هائل من الشعراء، الذين تغذوا من الثقافة التي أتـاحتها المراكز العلميـة و الثقـافية بالمشـرق و المغـرب في السنوات اللاحقة، و لاسيما بعد الحرب العالمية الأولى، كما سنوضحه في المحاضرات الموالية.

[1]– عبد الله ركيبي: الأعمال الكاملة، م1، ص685، مأخوذة من جريدة الفاروق 8 أفريل 1913.

تيـارات الشعر الجزائري الحديث

تمهيـد:

أثمرت اليقـظـة الجزائـريـة نهضة فكريـة و أدبـيـة انتعش فيـهـا الشعر، فبلغ بعد الحرب العالمية الأولى أحسن ما أنتجته القرائح من قصائد اجتماعية و سياسية و أخلاقية، تنم عن أفكار ناضجة، و فهم دقيق لفن الشعر، و معرفة بالعلوم التي تتعلق به، و يزداد ازدهارا عندما تتولى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الفكرة الإصلاحيـة، فتجعل من الشعر وسيلة هامة في الدعوة للتيار الإصلاحي و نشر مبادئه و الدفاع عنه ضد خصومه، لاسيما أن هؤلاء الشعراء هم من أبناء الحركة الإصلاحية، المتشبعين بهذا الفكر و الموالين له، منذ أن بدأ يتبلور و يظهر بشكل منظم سنة 1925 بظهور جريدة "المنتقد" لسان حال الفكر الإصلاحي الذي برز بشكل واضح القسمات يعكسه شعار الجريدة "الحق فوق كل أحد و الوطن قبل كل شيء"[1]، و يعلن صاحب الجريدة الشيخ عبد الحميـد بن بـاديـس عن المنهج الذي سيسلكه الإصلاح بـواسطـة هذه الجريدة المتمثل في الرجوع إلى تراث الأمة و النهل من ينابيعه و إعادة إحيائه بشكل يتماشى مع العصر، و نقد الواقع المعيش، و نبذ التـخـلـف بشتى أنواعه، و التخلص من أشكال الجمود و التحجر العقلي و الفكري، و هنـالك يتم الإعلان عن تشكل الملامح الحقيقية للتغيير الاجتماعي في الجزائر، دالا على نضج الضمير الجماعي و وجوده في صحة جيـدة، تمكنـه من تجـاوز سياسة التغريب القسرية، و الحفاظ على المقومات الشخصية و الحضارية، و الأخذ في الوقت ذاته بأسباب التطور كما عرفها العالم المتقدم.

خـاض الإصلاحيـون منذ ذلك الحين معتـرك التغيـير، الذي لم ينطلق من فراغ تـاريخي أو اجتماعي أو سياسي، بل وجد أمامه رصيدا تراثيا من القيم الأصيلة، فلم تكن الجزائر قبل الاحتـلال موطنـا للفـوضـى و التخلف، و لم تكن مؤسساتها ضعيفة، بل كانت ذات قيم إنسانية و اقتصادية رفيعة المستوى، لها ارتباط معين بالشمولية العالمية[2]، لذلك سيكون الإصلاح المقصود هو الذي يحمل جينات ثورة تقام على أساس متين، بعد إزالـة المعوقـات المعترضة، و مواجهة كل أشكال الظلم و التمزق الاجتماعي و التخلف، و إعـادة النـظـر في كل شيء لحقته يد الفسـاد، و إرجـاعه إلى أصـله الأول، و قد كـان حضـور الشعر قويـا في خضـم هذه الإصلاحات الشاملة و خادما لها، و يذهب بعض النقاد إلى أن الشعر الجزائري الحديث كان مرتبطا بالفكرة الإصلاحية، و لم يكن مرتبطا بالأفكار أو الأحزاب السياسية، لأنها لم تهتم في برامجها بإحياء التراث و خاصة الشعري منه "بينما كان رجال الإصلاح لا يرون تقدما بغير المقومات الأساسية للشعب من لغة و دين و تـاريخ و

[1]- عبد الله ركيبي: الأعمال الكاملة، م1، ص671.

[2]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص146.

حضـــارة، و من هنـــا اتجه الشعر إلى التركيز على فكرة الإحياء و كانت النظرة فيه سلفية تتجه إلى الماضي الذي يمثـــل النمـــوذج المحتذى"[1] فإذا كان القصد من هذا الرأي –على موضوعيـــته– هو الارتبـــاط العضوي أي انضواء هؤلاء الشعراء تحت قبة الجمعية المتزعمة لهذه الفكرة، هو الذي خول لهم التعبير عن هويتها و أهدافها و سلك بهم مسلك الإحياء، فإن هناك من الشعراء الجزائريين، الذين ارتبطوا بفكرة الحرية و الاستقلال، و لكن مذهبهم الأدبي كان إحيائيا خالصا، و كان ارتباطهم بالحركة الإصلاحية ممثلة في جمعية العلماء ارتباطا روحيا، رغم اختلاف ميولهم الفكرية، فكانوا من الدعاة المتحمسين للدفاع عن اللغة و الدين و التاريخ و الحضارة، و من ثمة سيكون تصنيف هؤلاء الشعراء حسب التيار الأدبي الذي يتبناه كل منهم.

إن الباحث في الشعر الجزائري الحديث سيلاحظ فيه –مثلما يلاحظ في بقية الشعر العربي منذ بداية نهضته الحديثة– نزعتين مهيمنتين هما نزعة المحافظة و التقليد، و هي تيار فني تتبناه فئة من هؤلاء الشعراء، و نزعة أخرى هي التطوير و التجديد و هو تيار فني آخر أيضا تتبناه فئة أخرى مغايرة، و لكل منهما دعاة و أنصار و مؤيدون.

[1]– المرجع السابق، م1، ص674.

التيـــار الإحيـائي المحـافظ

تمهيـــد:

عند قراءتنا للمدونة الشعرية الحديثة نجد أن الميل إلى تقليد النصوص القديمة، و إعادة إحيـاء أساليـبـهـا و مضامينها، هي السمة الطاغية على هذه الأشعار، فنتيقن بأن هذا التيار المحافظ وجد عند الشعراء و كذا النقاد تـقبلا حسنـا و استجـابة تلقائية، نظرا لتأثرهم بالفكر الإصلاحي و تشربهم لمبادئ الحركة و تقيـدهم بمنـهجهـا، و تأثرهم إلى جانب ذلك بالحس الوطني الذي لم يكن يختلف كثيرا عن الإصلاح، من حيث المبـادئ و المحاور الكبرى للتغيير، من خلال مسايرة الواقع و التعبير عن روح الشعب، و ارتباطهم بالأحداث ارتبـاطـا غير عادي، و قد تولد عنها وجود شعراء كثر تحدثوا في مضامين عديدة دينية و وطنية و ثورية و عاطفية، ينضوون تحت مظلة واحدة، و ينتمون إلى تيار أدبي واحد هو التيار الإحيائي المحافظ. ستسلط دراستنا للنصوص وفق هذا المنـطـق، بالإضـافـة إلى أن هؤلاء الشعـراء كـانـوا متـفـقين في استيـعـاب النمـاذج الشعريـة العربيـة القـديمـة و احتذائها، على الرغم من تفاوتهم في الأسلوب، كل حسب طاقة امتلاكـه لناصية اللغة و درجـة اطـلاعـه على التراث.

بواعث التيار الإحيائي المحافظ:

حري بنـا قبل ذلك أن نبحث في البواعث التي تقف وراء وجود هذا التيار في الشعر الجزائري الحديث من ناحية، و قوة انتشاره، و تغلبه على بقية التيارات الأدبية الأخرى، رغم الارتباط المستمر للحركة الشعرية بالجزائر، بالحركة العربية الزاخرة بتيارات الإبداع و التجديد من ناحية أخرى. و من ثمة تكون دراسة هذه البواعث و المؤثـرات الأساسية التي تساوقت لانتشار النزعة الإحيائية المحافظة أو التقليدية، أمرا ضروريا ضمن تقييم الشعر و مقاربته، وفق منظور سنة اتباع التقاليد الشعرية العربية القديمة، القائمة على معمارية القصيدة التي تعارف عليها العرب طوال تاريخهم، و إيقاعها، و رؤيتها الذاتية، و طريقة قولها، و اعتبارا من أن ذلك هو النموذج الذي ينبغي أن يحتـذى، فمن لزمه بحق و بنى شعره عليه فهو المجيد و المبجل، و من لم يفعل ذلك، فإن نصيـبـه من الإجـادة و التبجيل يكون بحسب مقدار إسهامه[1]، هذه البواعث هي:

[1]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص337.

1. التحصيل العلمي و المعرفي:

قامت المؤسسات التعليمية الإصلاحية بالجزائر بدور تاريخي فاعل، للحفاظ على استمرارية تداول اللغة العربيـة في الحيـاة الاجتمـاعيـة و الثقـافيـة، في ضوء علاقتهـا بالدين و بالقرآن الكريم، نتيجة ما تعرضت له من السياسة الاستعمارية الممانعة للإصلاحات، و لاستعمال اللغة العربية بالذات، و كادت أن تقبرها في الجزائر بصفة نهائية، حين دعمت تعليم اللغة الفرنسية و جعلتها لغة ثانية اختيارية في التعليم، و شبه منعدمـة في الإدارة و في الحياة الاجتماعية الجزائرية، لذلك ارتبط تعليم اللغة العربية بالحركة الإصلاحية التي قادتها جمعية العلماء المسلميـن الجزائريين التي تتصور أنها جزء لا يتجزأ من عملية الإصلاح الديني الشامل باعتماد المبادئ الدينية الحقة، و الالتزام بالشريعة الإسلامية، كما التزم بها السلف الصالح، و تنقيتها من البدع و الخرافات التي ألحقها بها أصحاب الطرق الصوفية المنحرفة بتأييد و دعم من الإدارة الفرنسية. في هذا التيار تشكل خطاب الحركة الإصلاحية مؤمنا بضرورة الممارسة الفكرية من أجل تحرير الوطن من الفساد و الانحطـاط و العقـول من الجهـل و الجمود و الخرافة، التي تحيدها عن التقدم و الرقي، فالرجوع إذا إلى الماضي البعيد الموغل في عمق التاريخ العربي و الإسلامي، و الذي يبدو في ظاهره تقهقرا إلى الوراء، هو عودة إلى الأصل الذي آمنت به الأمة، و كان سببـا في صنـاعة أمجـادها سـابقا، و هو حقيقة أيضا يحتاج الجزائريون إلى استعـادتهـا، و هي المهمة التي تـقـودهم نحو النهوض. في ضوء هذا المفهوم ارتبط التعليم و التحصيل بالحركة الإصلاحية من أجل إحياء الثقافة و العلوم الإسلاميـة مرة، و مـواجهة الاستعمـار التبشيري مرة ثانية، و لعبت البرامج التي وضعت بناء على خلفية وطنية و أخرى عربية دورا حاسما في استعادة اللغة العربية مكانتها القوية في النفوس و الضمائر و الألسنة خاصة الألسنة الشاعرة، و تعمق تكوين المتعلمين و كبر حجم رصيدهم العلمي ذي الصبغة الدينية، بتناسق التكوينين الداخلي (بالجزائر) و الخارجي (بالمغرب و المشرق)، و كان لاحتكاك هؤلاء المتعلمين على هامش دراستهم، و خلال نشاطاتهم الطلابية المكملة و الحرة بالنشاطات الفكرية و الثقافية و السياسية، التي تعقد في دور الفكر و الثقافة كبير الأثر في تكوينهم الشخصي و في صقل مواهبهم، و تنمية حسهم و أذواقهم، و تطوير ميولهم، و توسيع مداركـــهم، "و إذا بالشعـــراء منهم يصدرون عن هذه الثقافة العربية الأصيلة يـبنون عليها رسـالتهم الإصـلاحيـة، و يقيمون عليها نهضة البلاد، و إذا بفكرة الإحياء و الرجوع إلى الماضي تصبح عندهم النموذج الذي يجب أن يحتذى، و القبلة التي تجذب العقل و العاطفة معا"[1]، و هذا ما دعاهم أيضا إلى الاستجابة للحركة الإصلاحية في ضرورة العناية بالقرآن الكريم، و تمجيده و حفظه و

[1]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص43.

دراسة بلاغتــه و إعجــاز أســاليــبــه و الافتتان بلغته التي لا تنقطع أعاجيبها، فظهر أثر ذلك واضحــا في نصوصهم الشعريــة من خلال أســاليــبــهم و صورهم الفنية، فضلا عن تناصهم مع آياته و معانيه، ولا أدل من اعتراف الشعراء على تأثير القرآن و العلوم الشرعية في تكوينهم العلمي بعامة، و لغتهم الشعرية القوية بخاصة، و حفلت أشعارهم بالنزعة الدينية المتــجــلية في امتداح الإسلام و التغني بفضائله، و الغيرة على المسلمين و دعوتهم إلى الاتحاد، و يتحول الشـاعر إلى مرشــد و واعظ ينشغل بواقع المجتمع و يتأمل ما يحدث فيه من مشاكل، فيحاول أن يسهم في تغيير و إصلاح هذا الواقع بالاعتماد على المبادئ الدينية، و يربط الحلول بالرجوع إليها، و التمسك بتعاليم الدين الحنيــف، ففي الحــث على حفظ القرآن و فهمه و الاقتداء بهديه و أحكامه يقول محمد العيد مخاطبا الطلبة في قصيدة بعنوان "يا معشر الطلاب" من أربعين بيتا:

يا معشر الطـلاب هل من آخذ　　　بالذكر أو متمســك بعصــامــه؟
فتـــشــرفوا بالأخــذ من آدابــه　　　و تعـرفـوا بحــلالــه و حرامــه
و لكــل شــيء في الحيـاة أذيـة　　　و أذيـــة القـرآن من أقــوامــه
عملوا على التحذير من تفهيمه　　　فكأنهم عمـلـوا على إعــدامــه
هجروا مباده العلى و تنكبـوا　　　أحكامه و الخيـر في أحكـامـه[1]

في النص دلالة الحرص على تكوين و إعداد الشخصية المتكاملة، و المتحصنة بالعلم و القرآن اللذين يمنعانها من الذوبان و الانبهار بالآخر. كما يتجلى الاهتمام الأوفى بالقرآن و المنهج المتبع في حفظه و التمسك به من خلال الأبيات الموالية من قصيدة كتبها في تهنئة الشيخ عبد الحميد بمناسبة ختم تفسير القرآن فيقول:

ختـمت كتــاب الله خـتـمـة دارس　　　بصير لــه حـل العـويـص ميـسـر
فكم لك في القـرآن فـهـم مـوفـق　　　و كـم لـك في القـرآن قـول محـرر
حكيت "جمـال الديــن" في نظـراتــه　　　كأن "جمـال الديـن" فيك مصـور
و أشبهت في فهـم الشريعـة "عبـده"　　　فهل كنته. أم "عبده" فيك ينـشـر
أعد يا "ابن باديس" الحديث و أبده　　　بـأنـعـمك الـلائي بهـا أنت تؤثـر[2]

---

[1]– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ط3، المؤسسة الوطنية للكاتب، الجزائر 1992، ص90.

[2]– صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص86.

و يمكننا أن نمثل لهؤلاء الشعراء المصلحين بـ"فتى الإصلاح" الطيب العقبي متحدثا عن القرآن هو أيضا قائلا:

كتـــاب ربي حجـتـي ما مـثـلـه للمـرء هـاد

و طريق أحمـد لي هـدى و دليل قصدي و السناد[1]

و حرص الشعراء داخل بيت الحركة الإصلاحية على أداء رسالتهم أيضا بالحفاظ على المقومات الشخصية وبالرجوع إلى الماضي الشعري و استلهام أساليبه و أفكاره و صوره، التي كان يزخر بها الموروث العربي في أزهى عصوره الأولى، بدءا بالجاهلي و انتهاء بالعباسي فتركز اهتمامهم بـإعادة بعث التـقـاليد الشعريـة و محـاكـاتهـا و المحافظة على استمرارها فالقافية واحدة و الوزن واحد و الموضوع كذلك واحد، لا يخرج عن الأغراض الشعرية القديمة المألوفة، لأنهم يؤمنون بأن الحفاظ على سلامة اللغة العربية في الألسنة مرهون باستقائها من مظانها الأصلية و هي "روائع فحول الأدب القديم، من أمثال عبد الحميد الكاتب و ابن العميد و الجاحظ و الحريري و البحتري و أبي تمام و المتنبي..."[2]، و قد نوه الشيخ عبد الحميد بن باديس بقيمة الشعر القديم فقال مدافعا عنه "الشعر العربي هو أصل ثروتنا الأدبية، و أصل بلاغتنا و مرجع شعرائنا في اللغة و البلاغة، و الأساليب العربيـة، فدرسـه و الاستفـادة منـه، أمر ضروري لحفظ هذا اللســان المبين"[3]، و يظهر تحيـز شعراء هذا التيـار للشعر القديم و تفضيلهم له من خلال النصح الذي أسداه الشاعر محمد العيد آل خليفة لتلميذيه الشاعرين الناشئين في قالب شعري قائلا:

إني أرى الأدب الجديد كساكما حللا تـرف بحسنـهـا و بـرودا

فـتـعهدا الأدب القـديم فـإنـه أحلى محـاورة و أصـلـب عـودا[4]

و من خلال هذه النصـوص أو التصريحـات التي استقيناها من صلب الممارسات الأدبية و الثقـافـيـة التي تعكس يوميات رجال الإصلاح في تعاملهم مع الواقع الذي كانوا يعيشونه، ندرك بأن الشعراء اختاروا هذا المنهج استجابة لضرورة التغيير الذي تتطلبه المحافظة على العناصر المشكلة للهوية الجزائرية العربية و الإسلامية.

---

[1]- عبد الله الركيبي: الأعمال الكاملة، م1، ص690.

[2]- محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص128.

[3]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص46.

[4]- المرجع نفسه، ص50، نقلا عن مجلة هنا الجزائر، ع17/أكتوبر 1953، ص11.

2. القصيدة الإحيائية المشرقية:

لم يكن المشرق العربي ينأى بنفسه يوما عن الجزائر و ما يحدث فيها، و لا الجزائر هي الأخرى انفصلت عما يجد في المشرق من شعر عماده الماضي و مجده، رغم السدود المصطنعة بينهما، فقد كان كل تحرك صغر شأنه أو كبر، من دعوة إصلاحية أو نشاط أدبي أو سواهما، يحدث في وطن ما إلا و تصل أصداؤه و تتفاعل معه الشعوب. بهذه الوتيرة كان المشرق العربي مؤثرا حيويا في التيارات الشعرية بالجزائر، "وقد تطور هذا التأثير بحسب الفرص التي أتيحت له، فكان في أواخر القرن التاسع عشر ضيقا محدودا، و كان في أوائل هذا القرن (20) أكثر اتساعا و أشد حرارة. ثم أصبح قدوة بارزة للأغلبية الساحقة بين الجزائريين منذ ظهور الدعوة الإصلاحية، و مؤيديها من الطوائف الأخرى. و لعل هذا المؤثر -بالإضافة إلى المؤثر السياسي- هو الذي أدى في النهاية إلى الانفصال التام عن فرنسا في مفهوم الثورة الوطنية الحاضرة"[1]، فنشير بذلك إلى التواصل المعقود و المستمر بين بلدان المشرق و الجزائر و لاسيما مصر، الذي لم ينقطع و ظل مده يغذي القصيدة الجزائرية، حتى أينعت و انفتحت على أبعاد موضوعاتية جديدة، مرتبطة بالواقع أكثر و بالمعاناة الذاتية و التجربة الشعرية الجزائرية، المواكبة للحراك الاجتماعي و السياسي، الذي وجه الجزائريين نحو الثورة و الاستقلال، فلم يكن التيار الشعري الإصلاحي وحده يمتح ممارسته الإبداعية المترعة بالثقافة العربية القديمة من الإنتاج المشرقي، بل التيار الوطني الثوري كذلك، و يتضح لنا هذا البعد بجلاء من خلال تصريحات هؤلاء الشعراء الدالة على تأثرهم بالنموذج المشرقي الذي يمثله رواد المدرسة الإحيائية في منشئها الأول، و لاسيما الرائدين أحمد شوقي و حافظ إبراهم اللذين تزعما التيار الشعري التقليدي الإحيائي، و نافحا عنه بقوة ضد خصومهما من التيارات التجديدية، و خاصة مدرسة الديوان بزعامة العقاد و المازني، حيث نشب بينهما صراع حامي الوطيس، بلغ حد الكره و السباب المقذع و القدح في الشخصية، و لكنه أثمر إنتاجا شعريا غزيرا طافحا بالقوة و الجزالة، و ارتقى أسمى درجات الإبداع، و قد اهتم شعراء الجزائر هم أيضا بهذا الصراع، و شغلتهم تجاذباته، و كلما أثيرت مساجلاته شدت أنظارهم و أفئدتهم و وقفوا موقف المنحاز و الداعم و المشجع للتيار الإحيائي، لأنه خير معبر عن ميولهم و أفكارهم الدعوية، و مسيرتهم الإصلاحية، و أحسن وعاء لرسالتهم، "و إن الأوساط الأدبية في الجزائر كانت في هذه الفترة بالذات مبهورة الأنفاس، و هي تتابع بشغف كبير و إعجاب لا نظير له إنتاج حافظ و شوقي، و كانت تحلهما محل الزعماء و المصلحين من أمثال محمد عبده و رشيد رضا و سعد زغلول و مصطفى كامل، و قد تجاوزت هذه الصلة الوثيقة حدود المتابعة و

[1]- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص27.

الاعجاب إلى اعتناق الطريقة، و تقليد الأسلوب، فلا نكـاد نجد شـاعرا واحدا في العشرينيـات و الثلاثينيـات، إلا و هو يقر بفضل شوقي و حـافظ و الرصـافي عليه، و يعترف بتتلمذه لهم"[1]، هذا هو حال تأثر الشعراء الجزائريين النهضويين بالقصيدة الإحيائية في المشرق. و قد تعرض الشاعر محمد الهادي السنوسي الزاهري للأثر الذي أوقعته أعمـال رواد المدرسـة الأوائـل و يعترف بفضلهم عليهم و إسهامهم في تكوين قرائحهم و صقل مواهبهم الشعرية بالقول: "من منا معشر الأدباء الجزائريين، من لم يفتح عينيه منذ انتهت الحرب الكبرى الأولى (14 – 18) على ما ظلت تنتجه مدرسة اسماعيل صبـري و حـافظ و شـوقي... للنهضة الأدبية في الأقطـار العربية. كان أساتذتنـا لا يفتـأون يتخيـرون لنـا من منظومهم، و منثورهم، ما يؤثروننا به لتثقيف عقولنا، و إصلاح ألسنتنا، و تبصيرنا بما تجود به المدرسة الحديثة في عالم العرب، و كان النتاج الفكري لهؤلاء، يعمل في الطلبة هنا، أكثر مما تعمل فيهم مدارسهم التي ينتمون إليها على اختلافهـا، فكونت بينهم انسجـاما، و نفخت فيهم روحا"[2]، و يتضح موقف الشعـراء الجزائريـين الذي لا محيد عنه، و تعلقهم الذي لا موارية فيه بالقصيدة الإحيائية كنموذج فني يمكن لمرجعيتهم و ينافح عنها، فيتحول إلى جزء مشكل لهذه المرجعية، فلا غرابة إذن أن نجدهم يجعلون من شوقي و حافظ رمزا لها و ركيزة من ركائز ثباتها و صمودهـا، و عندمـا فارقا الحياة، كانت وفاتهما بمثابة الزلزلة و الخطب العظيم الذي أثار هلعا و فزعا شديدين، فكأنمـا فقد الإسلام و اللغة العربية ركنـا ركينـا يشد بنيـانهمـا، و همـا الخسارة التي لا يمكن تعويضها، و هو الأمر الذي حمل مجلة الشهاب على نعي أحمد شوقي حين بلوغها نبأ وفاته بقولها: "مات شاعر الإسلام الذي كـان يعتز بمفـاخره، و يشدو بمآثره، و ينطلق بلسانه... مات شاعر العربية الذي تشـرب روحها، و تملكت هي روحه، فحمى أسلوبها و نغمها، و حمل لواءها خفاقا في الآفاق، كما توج على شعرائهـا في الأقطار باستحقاق.. مات شاعر الشرق الذي كان يهتز قلبه لهزاته، و تضطرب حياته لاضطراباته... فيدوي صوته حتى لتتحرك منه جبال... و تسري كهرباؤه حتى لترتبط بعد الشتات أوصال"[3]، و تماهي هذا الإحساس العميق أيضا جريدة "وادي ميزاب" فتعرب عن حزنها و ألمها لفقد معجزة العصر و العاطفة الإسلامية، و الغيرة الوطنية على اللغة العربية، أحمد شوقي و رفيق دربه حافظ إبراهيم بقولها: "إن فجيعتنا بشوقي، بعد أن بقي العزاء الوحيد بعد حافظ لشديد، و مصابنا بهما لأليم، و نكبتنا بهما في وقت محنتنا، و في عصر نحن أحوج ما نكون إليهما، لنكبة لا تعدلها نكبة"[4]، و يبلغ إعجاب الشعراء مداه بالإحيائيين المشارقة، و بشوقي

---

[1]– محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص53.

[2]– المرجع نفسه، ص52-53، نقلا عن مجلة هنا الجزائر، ع27/5 جويلية 1954، ص4.

[3]– المرجع نفسه، ص56، نقلا عن مجلة الشهاب، ع11، م8/نوفمبر 1932.

[4]– المرجع السابق، ص56.

خصوصا فيصل إلى حد التعصب الممجوج، و لكنه ظاهرة صحية، لم تقتصر على الجزائريين فقط بل شملت حتى أدباء المشرق

المتحيزين للمدرسة الإيحائية، و من فرط إعجاب الشاعر محمود بن دويدة بأحمد شوقي يقول:

فانظر إلى الشرق في إبان نهضته تلقى فتى الشعر يحدو الشرق في الطلب
يحرك الجامد الواهي على كسل حتى يهون على الواهي لضى اللهب
و لن تجد مثل شوقي حين تنصفه شعرا، و لو بين غير العُرب و العرب
العبقري الذي في النيل آيته تعلو على آيات الكُتاب في الكتب
الشاعر الفرد في مرقى بدائعه الطائر الصيت في الأجيال و الحقب
النادب الشرق يوم الروع يوقظه الناظم الشعر في الميدان و الحرب
المحيي اللغة الفصحى و قد فقدت ما كان فيها من الإعجاز و العجب[1]

و قد ندب محمد العيد آل خليفة حافظ إبراهيم و عبر عن حسرته و حزنه الشديدين لوفاته قائلا:

يا راحلا و نوادي الشرق تندبه و لهى، و ترفعه كالشرق مقدارا
عزاء مصر عزاء الشرق في فلك سلس القريض فما استخذا و لا جارا
أقام قائمة الدنيا و أقعدها و دام فيها عشيات و أبكارا
و في الجزائر من وجد بمأتمه هول عليه طغى كالموج تيارا
و ابن الجزائر بابن الشرق مرتبط و إن أحاطت به الأشواك أسوارا[2]

3. المفهوم القديم للشعر و وظيفته:

لم يكن الشعر الجزائري المحافظ في منأى عما كان يحدث من تطورات في الشعر العربي بعامة، نتيجة احتكاك الشاعر الجزائري بمجال الثقافة و الإبداع في الوطن العربي برمته، لكنه كان ينمو و يتطور عبر الأشكال الفنية القديمة، بغية الوصول بالتجربة الجزائرية إلى مرحلة من التوازن بين ما هو فني و ما هو اجتماعي و واقعي، خارج مجال المعارك الأدبية الدائرة حول الأشكال و المضامين، التي رافقت الانتفاضة الشعرية منذ بداية القرن العشرين داخل السوق المشرقي، لأن الشعر الجزائري كان يسير بخطى وئيدة نحو تحسين الذوق و إجادة القول، و لم يجد ضالته و لا ما يروي غلواءه، إلا فيما استحسنه العرب الأقحاح، و قد كان للعرب قديما شعراؤهم الذين رسموا معالم بيئتهم، و صوروا دخائل نفوسهم، و أساليب حياتهم، و محيط مجتمعهم، و كان ولاء الشاعر للقبيلة و

[1]- محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص223.

[2]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص57-58.

لقيمها التي كان يتغنى بها، و يلزم نفسه بها، و يمتدح كل من تشبث بها، و هو جزء لا يتجزء من هذا الكيان الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي، لذلك يوقف شعره في خدمة قبيلته و قضاياها، و يتفانى في الذود عن مصالحها، و يحسن تمثيلها في المحافل القبائلية، و هو لسان قومه و درعهم و سفيرهم، أفلا يحق حينئذ أن يلق من قومه التبجيل و الإكبار، و قد لقي ذلك فعلا، "فإذا نبغ في القبيلة شاعر أتت القبائل فهنأتها، و صنعت الأطعمة و اجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعن في الأعراس، و يتباشر الرجال و الولدان، لأنه حماية لأعراضهم، و ذب عن أحسابهم، و تخليد لمآثرهم، و إشادة بذكرهم، و كانوا لا يهنؤون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج"[1].

و قد اطلعنا على مجموعة من التعاريف التي قدمها بعض شعراء التيار المحافظ بالجزائر للشعر، فوجدناها تحذو حذو التعريفات الموجودة في بطون أمهات الكتب العربية لكبار العلماء و النقاد العرب، الذين لهم إلمام واسع بالإنتاج الشعري القديم، أمثال قدامى بن جعفر و ابن طباطبا العلوي و ابن رشيق القيرواني و ابن قتيبة و الآمدي و الجاحظ... و غيرهم، فلم يخرجوه من دائرة البناء الهندسي للقصيدة العربية العتيقة، القائم على الوزن و القافية، و الصور البلاغية المعهودة، و اللغة المعجمية القوية، و واحدية البيت، و مهما تقاطع هذا المفهوم مع المفهوم القديم، فإنه زاد عنه بإخضاع النص الشعري لخدمة الواقع الجزائري الراهن، و التعبير عنه بفيض نفس و صدق مشاعر، تشي بحضور الذات الشاعرة بصفة متفاوتة بين القوة و الضعف، و قد أشار محمد الهادي السنوسي الزاهري لهذا المنظور، فجعل الشعراء في مقدمة المصلحين، الذين يقومون بإيقاظ الناس و توعيتهم، و شحذ هممهم، للوقوف ضد القهر و الانتصار عليه، فهم الذين لا يمكن للأمة أن تستغني عنهم فقال: "و بهذا تعلم أن الشاعر هو ذلك الفذ القادر، الذي قد أوقف نفسه على بني جلدته، أو بني الإنسان أجمعين – و أنا لنا بهذا، و أطماع النفعيين من المعمرين تمنع منه – يجاهد بفكره في سبيلهم ليهدي الضال، و يعلم الجاهل، و يضرب لأبناء البشر المثل العالية في السعادة، و كمال الإنسان. إذن فلنعلم أن الشعر و الشعراء لا غنى لأية أمة عنهما، إذ بنتائجهما ينتج لنا كل ما نحن في حاجة إليه من سنن أخلاق و اجتماع، و تربية و تهذيب إلى ما ينتج عن هاته السنن الطيبة من الوحدة فيها..."[2].

و يلاحظ من خلال هذا النص، أن الشعر عند رواد التيار المحافظ في الجزائر، له علاقة وطيدة، تربطه بالأخلاق و المثل، و الشاعر هو الذي يهدي و يقود الناس للتحلي. و من هذا المنطلق اجتمع رأي الرواد حول

[1]– ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان 1974، ج1، ص37.

[2]– محمد الهادي السنوسي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص26.

إبعـــاد الهجـــاء و الغـــزل من الموضوعـــات التي يتنـــاولها الشـــاعر في شعره، لتنـــافيهما مع البعدين الأخـــلاقي و التعليمي، اللذين يتغياهما الشعر و الشاعر معا، لأن مهمة الإصلاح السامية التي يقوم بها الشاعر، تـــشـــغله عن الخوض في التغـــزل بالغـــواني، و يعتبر ذلك استهتارا بالقيم، و قد عبر عن هذه الأبعاد الشيخ عبد الحميد بن باديس شعرا قائلا:

و دع غـزلا للغـانيـات، فطـالمـا سلا عن وصال الغانيات نبيل

فديدني الآداب و العلم مقصدي و لازلت في نيل المعالي أجول[1]

و يقول الشاعر محمد اللقاني بن السايح في هذا المضمون أيضا:

ألا فدع التغـزل في غـوان فتلك طبيعة المستهترينـا

فمن صوت البلاد لنا نداء يكاد المرء يسمعـه أنينـا[2]

فيلاحظ حرص هؤلاء الشعراء المصلحين على اتباع مفهوم محدد، استجابة للواقع الاجتماعي و السياسي المعيش، كان الشعر بموجبه وسيلة تتخذ للنهوض بالبلاد، ولذلك تحول مقصود الغزل القديم عندهم إلى غزل سياسي يتغنون فيه بالحرية المسلوبة وبالوطن وبمواضيع أخرى غير المرأة.

[1]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص77.

[2]- محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص39.

بنية النص الإحيائي وظواهره الفنية

إنصب اهتمام الشاعر الإحيائي الجزائري في مرحلة اليقظة بالقصيدة القديمة فأخذ منها كل مجهـــوده الفني و الفكري و هو بذلك يجاري المدرســة الإحيائية المشــرقية التي اتخذت من الشــعر التقليدي العربي القديم أنموذجا للانطلاقة و النهوض فكانت خصائصها الفنية كالآتي:

1. الوحدة الموضوعية و العضوية:

نهج الشعراء المحافظون منهج أسلافهم القدماء في بناء القصيدة على وحدة البيت، فترد أبيـــات قصيدتهم في بناء مفكك خال من الحرارة الذاتـــيـــة، التي تربط الأبيـــات باللغة الشعريـــة من حيث المعـــاني و الصـــور و الألفـــاظ، "فيكـــاد كل بيت فيها يستقل بنفسه و يكون مع سابقه أو لاحقه خطوطا أفقية يسهل على المرء أن يغيرها من مكانها التي وضعت فيه دون أن يصيب ذلك خلل في البناء أو تشويـــش في الأفكـــار أو تمـــزق في الصورة"[1]، و لعل هذا يتناسب مع طبيعة الموضوعات الإصلاحية التي أثاروها، فيتطلب منهم ذلك استخدام العبارة الموجزة و الفكرة المركزة، و قد أثر التصاقهم الشديد بالمدرسة الإحيائية و بروادها و اطلاعهم على مستواها الفني، على أن طول القصيدة و اختيار الروي الموحد كان لهما أثر أيضا في افتقادهما لوحدة الموضوع إذ يلجأ إليهمـــا الشـــاعر كي يتمكن من مجاراة القصيدة بسهولة فيقوده طولها إلى ضرورة تغيير الموضوع، حتى لا يصيبه هو و المتلقي معا الفتور[2] لكنه سيقع في الحشو و الابتذال لا محالة.

و إن كانت هذه القصائد المحافظة تقليدية في منهجها العام، فإن أصحابها كانوا يحاولون الالتزام بوحدة الموضـــوع، إذ كـــانت الفكـرة الإصلاحية العامة المبثوثة في قصائدهم هي بمثابة الغرض الشعري الذي عرف قديما، و آيتنا على ذلك هو اختيارهم لعناوين محددة لقصائدهم، و في ذلك دلالة على رغبتهم في توفير وحدة الموضـــوع، فضلا عن أنهم التزموا بالأغراض الشعرية التقليدية التي عرفت في القديم مثل المدح و الرثـــاء و الفخـــر و الوصف و غيرها، إلا أنهم أبعدوا أو أقلوا الحديث في بعض الأغراض التي لا تتناسب مع الفكر الإصلاحي الذي اعتنقوه مثل الغزل، لكن الملاحظ أن التجديد الذي استحدثوه في هذه الموضوعات أنهم سخروها لخدمة القضايا التي تتعلق

[1]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص596.

[2]- شكري محمد عياد: موسيقى الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر 1968، ص107.

بمسارهم الإصلاحي، أي تتناول الواقع الذي يعيشونه، فقد تناول مثلا محمد العيد آل خليفة غرض الغزل، و لكنه كان سياسيا خالصا لا علاقة له بالمعاني الغزلية القديمة، كما في قصيدته "أين ليلاي" التي يقول في مطلعها:

أين ليلاي أينها حيل بيني وبينها
هل قضت دين من قضى في المحبين دينها[1]

2. اللغة الشعرية:

تبدو أصالة الشاعر من خلال تفرده و قدرته على نسج رؤية نافذة إلى المجتمع الذي تتصارع كل التناقضات الاجتماعية بداخله باستخدامه للغة شعرية شفافة ذات إيحاءات معبرة عن معاناة الذات الفردية و الجماعية إيزاء الوضع الاجتماعي الذي تعيشانه، فإذا افتقرت لغة الشاعر إلى عنصر الإيحاء، صارت لغة مهتلكة خالية من جمال الذوق و يصير الشاعر مجرد ناظم يلتقط صورا من الأحداث اليومية، ثم يعيد صياغتها بلغة مسطحة لا علاقة لها بمعاناته و انفعالاته الذاتية.

و بالرغم من التصاق الشاعر التقليدي المحافظ في الفترة الاستعمارية بالواقع الاجتماعي و السياسي، فإن نصه الشعري لا يخلو من الألفاظ المعجمية الغريبة و الحوشية القديمة، و لعل سبب استخدام هذه الألفاظ "هو محاولة ربط اللغة بتاريخها القديم عن طريق الغوص في أعماق عمرها الطويل، و انتشال بعض المفردات التي تذكرنا بقديم لغتنا كرد فعل لما سعى و يسعى إليه أعداء الفصحى"[2]، من غلاة الاستعمار و أذنابه، و تقديس الشعراء أيضا لأمجاد الأجداد و تراث الأمة و للغة القرآن الكريم، و إن حمايتهم لها تعني حماية كتاب الله، و كمثال على ذلك قصيدة "حزب مصلح" لمحمد العيد آل خليفة التي يقول فيها:

سرْ مع التوفيق فهو الدليل حصحص الحق وبان السبيل
عاطني السراء كأسا بكأس واسْقنيها إنها سلسبيل[3]

يلاحظ توظيف الشاعر لألفاظ يستقيها من القاموس الشعري القديم و من لفظ القرآن الكريم مثل: حصحص – السبيل – عاطني – إسقنيها – سلسبيل، بالإضافة إلى احتذائهم حذو النماذج العربية القديمة الذي يعودهم على التراكيب اللغوية الجاهزة، فترد لغتهم الشعرية تقريرية مباشرة خالية من الإبداع الفني و الجمالي و تفتقر إلى الإيحاء و التصوير الخيالي، لأن الشاعر يهمه بالدرجة الأولى أن يوصل وعيه و فكره المصلح إلى المتلقين من

[1]– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص41.

[2]– ربيعي محمد علي عبد الخالق: أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر 1989، ص115.

[3]– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص129.

أفراد المجتمع الجزائري و يحرص على اقناعهم بضرورة النهوض و اليقظة و دفهم إلى التغيير، ببذل النصح و الإرشاد، و لغة مقنعة كهذه تخاطب العقل أولا قبل القلب، و من نماذج هذا التوظيف قول محمد الهادي السنوسي الزاهري مخاطبا ابن باديس بعد تعرضه لمحاولة اغتيال:

خبرت البلاد، وأضرارها فأقبلت تندب أحرارها
وأرسلتها نظرة حرة رعى الله في الحر أفكارها
فصوّرت للناس آلامها وأجليت للعين أغوارها[1]

و قول الشاعر محمد السعيد الزاهري محرضا الشعب على اليقظة و الوعي:

ألا فليفق شعبي من النوم، فإنه لفي مرض من النوم قاتل
ألا فليفق شعبي من النوم برهة فإنا لفي شغل من النوم شاغل[2]

فيلاحظ في النصين التركيب النحوي البسيط بأسلوب سطحي مباشر، لا يتعدى التركيب الإسنادي الذي يظهر طرفاه بوضوح بعيدا عن الغموض الذي لا يتناسب مع الموقف مثل: خبرت البلاد – أرسلتها، و كذا توظيف الأساليب الإنشائية التي تتناسب مع الأسلوب الخطابي المعتمد على التكرار و التأكيد اللذين يفيدان التحريض كتوظيف الأمر بعد النداء (ألا فليفق – ألا فليفق).

و كثيرا ما كان الشعراء يعتمدون على التراث فيتوسلون بمفرداته و معانيه فيقتبسونها في أشعارهم و يتناصون مع عبارات و أساليب بعض أبيات القصائد القديمة، فتصل في بعض الأحيان إلى اقتباس صدر أو عجر البيت، و كذا اقتباس بعض الألفاظ و العبارات و الاستعمالات القرآنية، لكن مع ذلك هناك بعض الشعراء التقليديين الذين استطاعوا أن ينشئوا أشعارا بلغت مستوى جيدا من الشاعرية و من اللغة الخصبة ذات البعد الجمالي و الفني الراقي مثل الشاعر الأمين العمودي و محمد العيد آل خليفة.

3. الصورة الشعرية:

يجب أن نقر في البداية بأن مصطلح الصورة الشعرية لم يكن معروفا لدى الأدباء و النقاد العرب القدماء، و لكن غيابه قديما لا يعني بحال، انتفاء وجود التصوير الفني كقيمة إبداعية جمالية اهتم بها الشعراء القدماء من أجل تجويد أشعارهم، و لكنه كان يأخذ مفهوما غضا يمكننا أن نعتبره إرهاصا للمصطلح النقدي الحديث، اعتبره النقاد القدماء عنصرا من عناصر التصوير في الشعر، قائما على الاستعارة و التشبيه و ألوان البديع، و اعتبروه بدايات

[1]– صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص77، نقلا عن الشهاب الأسبوعي، ع1928/166.
[2]– المرجع نفسه، ص343، نقلا عن جريدة النهضة، ع3/572 ماي 1925.

الوعي بالخصائص النوعية للفن الأدبي[1]، و إذا قمنا بعملية الحفر في المخيلة الشعرية الجزائرية عند المحافظين، سنجد أنهم انتهجوا منهج القدماء حيث اعتمدوا في بناء عوالمهم الفنية على الصور البيانية المعهودة في القديم، إلا أن هذه العناصر الفنية و إن أجاد بعضهم في استخدامها فإنها تكتسي الطابع التقليدي للصورة الشعرية الإحيائية القديمة و الشائعة في شعر المشرق أيضا، "و مع ذلك فإننا لا نزعم بأن الشعر الجزائري في التيار التقليدي المحافظ قد كان خاليا من عنصر التصوير بصفة كلية و لكن الذي نريد قوله هو أن استخدام التصوير عند هؤلاء الشعراء كان ضعيفا من جهة، و أن الصورة عندهم كانت تتميز ببعض الخصائص التي لم تساعد على الرقي باللغة الشعرية جماليا و فنيا من جهة أخرى"[2].

هذه الخصائص منتزعة من رصيد الشعراء المعرفي ذي الصبغة الدينية، فقد شاع عندهم استخدام الصور القرآنية أو الصور المنبثقة عن الحديث النبوي بصفة مكرورة، منعتهم في كثير من الأحيان من التطلع إلى إبداع الصور الجديدة، و من التأثير في المتلقي و إثارة انفعالاته، لسيطرة الطابع التقريري و الذهني المجرد، كاستخدام التشبيهات المستمدة من البيئة العربية القديمة في التعبير عن قضايا آنية و قد تستخدم صور متعددة في القصيدة الواحدة لخلوها من الوحدة الموضوعية و العضوية، كما تتميز الصورة الشعرية عند المحافظين بأنها حسية مرئية لا تستدعي من المتلقي إعمال فكره للمشاركة في إضفاء الجمالية على الصورة الشعرية، و من النماذج الشعرية التي يبرز فيها هذا النمط من التصوير، وصف محمد العيد آل خليفة لليل الاحتلال فيقول:

يا ليل. ما فيك نجم جلا الدجى، وأزاحا
إلا كواكب حيرى لم تتضح لي اتضاحا

*** * ***

أخشى على الشعب هلْكا يبيده واجتياحا
من ألسن قاذفات تروي القبيح فصاحا[3]

يلاحظ في البيت الثاني و الرابع إستعارتان بشكلهما التقليدي، الذي لم يخرج عنه الشاعر لأنه يعتمد الأسلوب الخطابي المباشر، و هو بذلك يحيي نظاما تصويريا بلاغيا قديما.

---

[1]- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب، ط2، دار التنوير للطباعة و النشر، بيروت، لبنان 1983، ص7.

[2]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص427.

[3]- المرجع نفسه، ص 180.

4. البنية الإيقاعية:

عند قراءتنا لمدونة شعر التيار التقليدي، نجد أن الشعراء يعتمدون في نسج قصائدهم على الأوزان العروضية الخليلية المتـــداولـــة في الشعـــر العربي منذ القديم، و على نظـــام القـــافية الموحدة التي يتميز بها عمود الشعر عند العرب، لاعتقادهم "أن موسيقى الشعر تعد من أبرز صفاته فقد كان القدماء من علماء العربية لا يرون في الشعر أمرا جديدا يميزه عن النثر إلا بما يشتمل عليه من الأوزان و القوافي، و لما كان لشعرنا العربي نظامه الخاص في أوزانه و قوافيه التي جمعها الخليل بن أحمد الفراهيدي فيما سماها علم العروض فقد ظل هذا النظام يراعى مراعاة تامة حتى عصرنا هذا، و لا يزال شعراؤنا المحافظون على التراث و الخاضعون له ينسجون على منواله و ينهجون نهجه و هم به راضون قانعون، فهم قد ورثوا الأوزان عن شعراء العربية و لا يصح الخروج عليهـــا أو الحيدة عن نظـامها إذ يرونها قواعد راسخة ثابتة يجب على كل شاعر أن يلتزمها"[1]، لأنهم يؤدون وظيفة و يحملون رسالة هي إصلاح أوضاع المجتمع، و يتبنون منهجا معينـــا للحيـــاة و يقودون أفراد المجتمع إلى الإيمـــان و التمسك به و الدفـــاع عن كينونته ينجر عنه اعتقادهم بأن الدفاع عن عمود الشعر و عن الإيقـــاع الموسيقي العربي المـــألوف هو جزء من ذلك، و هو في الحقيقة دفاع عن الأصالة العربية و مقوماتها، و خير مثال لهذا النحو، ما نجده عند محمد العيد آل خليفة متحدثا عن العلم في قوله:

العلم سلطـان الوجود، فسـدْ به	**من شئْت، أو ذدْ عن حياضك وادْفعِ**
اه اه اااه اه اه اااه ا اااه اااه	**اه اه اااه اه اه اااه اا اه اااه**
مستفعلن مستفعلن متفاعلن	**مـسـتـفـعلن مـسـتـفعلن مـتـفاعلن**
والْجأ له بدل الحصون، فـلا أرى	**حـصنـا كمـدرسـة سمــت، أو مصنــع**
اه اه اااه اااه اااه اااه اااه	**اه اه اااه اااه اااه اه اه اااه**
مستـفعلن متـفاعـلن متـفاعلن	**مـسـتـفعلن مـتـفاعلن مسـتـفـعلن**[2]

فالوزن الموظف هو بحر الكامل الذي يتكون من تفعيلة (متفاعلن) تتكرر ثلاث مرات في كل شطر الذي يقال فيه:

كمل الجمال من البحور الكامل   متـفـاعلن متـفـاعلن متـفـاعل

و قد دخل زحاف الخبن في وزن البيتين فتحولت التفعيلة إلى (مستفعن).

---

[1]– ربيعي محمد علي عبد الخالق: أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر، ص63.

[2]– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص143.

التيـــار الرومـانسي المجـدد

تمهيـد:

التوجه نحو النزعة التجديدية كان يرافق التيار المحافظ منذ الميلاد، وسط وضع سيـاسي و اجتمـاعي موتور، تأثر به كل الأدباء و الشعراء بمختلف مشاربهم، و في الفترة التي تلي الحرب العالمية الأولى، تظهر هذه النزعة في شكل تيار شعري جديد يميل نحو المدرسة الرومانسية، التي عرفها الفضاء الأدبي العربي المشرقي، فكان بمثابة رد فعل للقهر و الألم الذي تجلى في كل مناحي الحياة. و يضيف بعض الدارسين إلى تأثر شعراء هذا التيار بالوضع الاستعماري في الجزائر، تأثرهم أيضا "بعاملين آخرين هامين أحدهما وصول المبادئ الرومانتيكية من فرنسا إلى الجزائر، و تأثر الجيل الدارس للثقافة الفرنسية بتلك المبادئ، و ما تحمله من بذور ثورية و أنغام حزينة، و صور بيانية حالمة جديدة. أما الثاني فهو تأثر أدبـاء هذا التيـار بكل من مدرسة المهجر و جمـاعة أبوللو الرومانتيكيتين، ذلك أن أدباء الجزائر لم يكونوا مفصـولين عن تطـور الحركـة الشعريـة في الأدب العربي"[1]، كما لم يكونـوا مفصولين أيضـا عن متـابعة جديد هذه المدرســة، في مكان ميلادها الأول و لدى روادها الأصليين في أوروبا، و بلغتها الأصلية كذلك، فكان لهؤلاء الشعراء الحظ، في أن يتشربوا هذا اللون الجديد، و يتفاعلون معه، من رافدين متنوعين عربي و فرنسي، فحصلت لهم الفائدة من وجهين، الأول أنهم ظلوا محافظين على نظرتهم للاستعمـار، و محـافظين على قيمهم و متشبثين بمقومات هويتهم، و من ثمة لم يكن بحثهم عن التجديد كرهـا أو حقدا على التيار المحافظ، و لم يشكل ذلك صراعا معه، إنما كان القصد من التوجه نحو الرومانسية، هو البحث عن لغة جديدة و أسلوب جديد، و قوالب فنية جديدة، يعبرون فيها عن هموم و أحزان صنعها الواقع الراهن، بلغة و أسلوب سلسين يعبران عن المعاني و الأفكار بسهولة و يسر. و الثاني أنهم أحسوا بواقع سيء فثاروا عليه، كما ثار الرومانسيون في الغرب، و اعتزلوا الحياة العامة بكل ما فيها من صخب و ضجيج، و لاذوا بالطبيعة يشكونها آلامهم و يبثونهـا أحـزانهم و أحـلامهم، فيزيدهم ذلك غضبـا و يذكي في نفوسهم نار الكره لسبب تعاستهم، و التمرد عليه، كما يقوي فيهم حب الوطن و تقديسه، و التمسك بأصالته، و النزوع إلى الحرية.

[1]- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص28.

بواعث التيار الرومانسي:

لهذا التيار في الجزائر بواعث أدت لوجوده هو أيضا، أحرى بنا أن نقف عند بعضها لتتبع مساره و كيفية نشوئـه في السـاحة الأدبية الجزائرية البكر، المنفتحة على الإنتاج الإبداعي الأصيل و المعاصر معا، دون اللجوء إلى هدم الجسور بينهما، بغية الوصول بالتجربة الشعرية الجزائرية إلى راهن يسوده التوازن بين ما هو فني و ما هو اجتمـاعي و واقعي، لذلك نجد أن واقع الشعر الجزائـري الحديث، يسير بوتيرة و على نحو يخـالف مـا وقع بين الأشكال الإبداعية الشرقية و الغربية. فحين نجد مساحة القلق و التوتر تتسع بين القديم و الجديد، في المخيلة الفنية العربية المشرقية و الأوروبية أيضا، "نراها تتقلص و تتراجع في المخيلة الجزائرية، أمام تصاعد و اتساع مساحة التعايش و التلاحم و التكامل، من خلال تصاعد العناصر الثورية، بصورة أكثر عمقا و حيوية في الحياة اليومية للشعب الجزائري"[1]، من هذه البواعث نذكر الآتي:

1. حركية الواقع السياسي و الاجتماعي:

تذكر الكتابات الأدبية المؤرخة للمعالم الأولى للرومانسية في الشعر الجزائري، أن ظهور هذا التيار في صورته المكتملة بعد الحرب العالمية الأولى، حين اصطدم الشاعر بالواقع البائس و الحياة المريرة، فراح يبحث في عناصر الرومانسية التي اطلع عليها، عما يجسد أفقا مغايرا لمظاهر الحياة الأليمة من ناحية، و لما مضى من زمن القصيدة التقليدية من ناحية أخرى. "فإن الأوضاع المؤلمة التي فرضها المستعمر آنذاك، تعد مؤثرا أساسيا في طغيان مشاعر الحزن و الكآبة، التي لونت الشعر الجزائري آنئذ، حتى غدت طابعا عاما يميز أغلب الإنتاج الشعري، الذي ظهر في العشرينيات، و كما أن ظهور الرومانسية في فرنسا، إنما مهدت له آلام الشعب الفرنسي و شكواه، من النظم الاجتماعية التي كانت سائدة قبل الثورة. فإن ما حرك مشاعر الإحساس بالذات، و الثورة على الظلم في نفوس الشعراء الجزائريين هو خيبة أملهم في مواعيد السلطات الفرنسية الكاذبة، و الآلام التي كان الشعب الجزائري قاطبة يعاني منها"[2]، و هو الذي حرك مشاعر سخطهم على هذا الواقع الذي اختلطت فيه الموازين و اضطربت فيه الأوضـاع، فبرزت في الشعر نبـرات التبرم و التشـاؤم من الحيـاة، و تصعدت زفـرات اليـأس، و آهـات الألم و الحـزن، و لا يجد الشـاعر متنفسـا ولا مجتلى لحزنه و تـأوهه إلا ذرف الدموع السخية، عسى أن تمسح حزنه، و تجلي غمه، فليس له سبيل إلا ذلك، يظهر هذا البعد الرومانسي الوجداني في مثال من شعر الشعراء الوجدانيين

---

[1]- عزيز لعكايشي: التعايش بين القديم و الجديد في الإبداع الجزائري الحديث، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، ع5/ماي 2005، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، ص102.

[2]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص88.

نسوقه للتدليـــل على ذلك، و هو نص للشـــاعر رمضان حمود رائد الرومـانسيين في الجزائر، نقتطفه من قصيدة "دمعة حارة في سبيل الأمة و الشرف":

بكيت و مثلي لا يحـق لـه البـكا عـلـى أمـة مخـلـوقـة لـلـنـوازل
بكيت عليـها رحـمـة و صبـابـة و إني على ذاك البـكا غيـر نـادم
ذرفت عليها أدمـعـا من نـواظـر تساهر طول الليل ضوء الكواكب[1]

يبدي الشاعر في نصه تعبيره الصادق، عن واقع لا تسعفه فيه إلا الدمعة الحارة، أو الآهة الممزقة، التي تروح عن النفس المعذبة، و قد عقد تأزم نفسيات الشعراء، و عمق الشرخ بينهم و بين مزاولـــة الحيـــاة الكريمـــة الهـادئة، مـــا شهده المجتمع الجزائـــري من تعـــاقب لأحداث مأســـاوية و مدمرة، كالفقر و التشـــرد و الأوبئـــة و المجـــازر، و تركت جراحـــا عميقة في قلـــوبهم، فكان لها أثر مباشر في تحول الشعراء إلى التعبـــيـــر عن ذواتهم و عن مشاعرهم الشخصية و معاناتهم الخاصة.

2. الاحتكاك الثقافي:

لم يكن احتكاك الشباب الجزائري المتعلم أثناء الهجرة، في المراكز العلمية و الثقافية، مقتصرا على إشباع نهم القراءة و الاطلاع، على ما تتيحه هذه المراكز، من معارف تراثيـــة فقط، بل إن فضـــولهم المعرفي امتد إلى أكثر من ذلك، حيث كان بعضهم مولعا بمتـــابعة جديد الأدب و الشعر، بل و المشـــاركة أحيـــانا في صنـــاعة أحداثه، و كانوا أكثر اتصالا بالشعر الرومانسي من خلال ما تنشره الكتب و المجلات، من إنتاج المدارس الأدبية العربية (الديوان – أبوللو – المهجر) و على الرغم من أن حركة الإصلاح إحيائية المبدأ و محافظة الاتجاه، إلا أنها "لم تغفل عن متابعة الحركة الادبية التجديدية"[2]، فقد كانت تشجع الأقلام المبدعة في التيار المجدد، و تنشر لهم إبداعاتهم، و كذا الكتابات النقدية حول أعمالهم أيضا في مجلة الشهاب، فكانت تحرص على تزويد قرائها بكل جديد يتعلق بأخبار و إنتاج شعراء المهجر الأمريكي، و بعد حين من صدور أعدادها صارت مصدرا هاما للأدب المهجري، متاحا للقراء و المثقفين الراغبين في التعرف على أخباره و سبر أغواره، و يتوج اهتمام المجلة بهذا اللون الإبداعي الجديد، إحداثها لعلاقات تواصلية مع عدد من المجلات العربية المشتغلة بالشعر الرومانسي، مثل: مجلة "السمير" لإيليا أبي ماضي و مجلة "القلم الحديدي" لجورج حداد و مجلة "السائح" لعبد المسيح حداد... و غيرها. "و كان بن باديس ينعت هذه المجلات دائما بأنها مجلات راقية، و أنها تمثل الأدب الراقي و الفن الجميل، و يقدر أصحابها و

[1]– محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص173.

[2]– محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص96.

الكتاب بها، على أنهم الأبطال الذين لايزالون يرفعون اسم العروبة عاليا في الأوطان"[1]. و الجدير بالذكر أيضا أن نهم هؤلاء الطلبة الشعراء لقراءة الإنتاج الرومانسي، لم يتوقف عند ما أنتجته القرائح العربية، سواء في المشرق أو المهجر، بل إنه امتد –كما سبقت الإشارة– إلى الاطلاع القريب على الرومانسية، في مكان ظهورها الأول و نضجها كمفهوم جديد مقابل لمفهوم الشعر القديم، و كرؤيـة تعكس نظرة الرومـانسيين للشعر، باعتباره وليد ذات الشاعر و انفعالاته الوجدانية، و كانت بمثابة رد فعل عنيف ضد الكلاسيكية، القائمة على أساس المحاكاة للنتاج اليوناني و الروماني، على اعتبار أنه يمثل ذروة الإبداع التي لا تضاهى. فقد اطلع بعض الشعراء الجزائريين بحكم تكوينهم العلمي باللغتين العربية و الفرنسية، على أعمال رواد الشعر الرومـانسي الفرنسي، أمثال فيكتور هوغو و لامارتين و فولتير... و غيرهم، مثلما فعل الشاعر الناقد رمضان حمود الذي كان يهتم كثيرا بالشعراء الفرنسيين المذكورين، و يشيد بإنجـازاتهم الشعرية و الأدبية، و "يلفت نظر الأدبـاء العـرب إلى إنتـاجهم الذي يرى التـزود منه، ضرورة لقطع بحر الاستعمار الطامي، و كـان يعجبه منهم مفهومهم للشعر، و صدورهم في إنتاجهم عن مشاعر ذاتية داخلية، تنقاد للإحساس و الشعور، و لا تنقاد للتأثيرات الخارجية كالخوف من الملوك مثلا"[2]. و من الشعراء الجزائريين المولعين أيضا بمتابعة الأدب الفرنسي و الشعر الرومانسي خصوصا، أحمد بن ديـاب حيث كتب يشيد بالثقافة و الأدب الفرنسيين و أثرهما الإيجابي، في إعداد و بنـاء صرح الأدب العربي الحديث قـائـلا: "أدبنـا العربي المعـاصر أدب مدين للنهضة الغربـيـة، في كثير من خصائصه، في حرية التعبير و مزايا الجمـال، و التناسق في الصياغة، و رشاقة الأخيلة البارعة بالتصوير..."[3] و من المتأثرين مباشرة أيضا الطاهر بوشوشي، حيث قام بترجمة عدة أعمال لفيكتور هوغو إلى العربية، و عرف بشغفه و انفتاحه على الآداب الأجنبية، من خلال مشـاركته في الكتـابـة عن هذا الشعـر بمجلة "هنا الجزائر". و أحد أقلامها المولعين بالشعر الرومانسي الفرنسي، و ما يحتويه من حرية في التعبير.

3. مفهوم الشعر عند الرومانسيين:

للرومـانسية العربيـة مفهـوم خـاص للشعر، يختلف عن المفهوم التقليدي تماما، في كونه يعتبر العاطفة هي مصدر الإلهام الشعري، و صدق المشاعر هو أساس التجربة الشعرية، و هو بذلك يسلك بالشعر مسلكا مغايرا، كنا عرفناه في المفهوم القديم، و بذلك لم تعد القصيدة الرومانسية خاضعة للبناء المعماري، الذي عرفته القصيدة

[1]– المرجع السابق، ص99، نقلا عن الشهاب، ج4، م7/أفريل 1931، ص165.

[2]– محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص116.

[3]– المرجع نفسه، ص118، النص مقتطع من مقال كتبه أحمد بن ذياب في مجلة هنا الجزائر، ع69/أكتوبر 1958، ص6.

العربية في سابق عهدها، و لا لنظامها العروضي الصارم، الذي يعرف بقـــافيته المضطردة و رويـــه المنـــتظم، كمـــا لم يعد الشاعر مجبرا على احتراف الصناعة اللفظية، و التعبير المتكلف، و اللغة المعجمية المعـــقـــدة، و هو مذهب شعـــراء الرومانسية الجزائريين الذين اتفقوا في كثير من الآراء الأدبيـــة حول مفهوم الشعر، مع شعراء الديوان و المهجر و أبوللو في المشرق، أو مع الشعراء الفرنسيين. و من الآراء اللافتة لمفهوم الشعر الرومانسي، التي وصلتنا مدونة، فتبيـــن بوضـــوح مواقف الشعـــراء من هذا المفهـــوم، آراء رمضـــان حمود، التي جمعها كتابه "بذور الحياة"، و ظهرت أيضا في كتاباته الشعرية الدالة على نزعته التجديدية منذ بداية نبوغه، "إن الشاعر الحقيقي في نظر رمضان، هو الذي يكون صورة صادقة لنفسه و لعصره، و لا ينقاد في إبداعه إلا لصوت ضميره، و ليس معنى هذا أن يكون شعرا ذاتيا أنانيا، يتغنى باهتماماته الشخصية وحدها، بل بالعكس من ذلك، إن الشاعر من هذا المنظور هو الذي يتحمل دور الريادة في الحيـــاة و المجتمع، في المجـــال السيـــاسي و الديني و الاجتماعي، عليه أن يقاوم الاستبداد بلسان حاد، لا يرده عن ذلك اضطهاد أو قوة أو جبروت، فإن الشعر الذي لا يحرك همة الشعب ليتطلع إلى الاستقلال و الحريـــة، و لا يذكر بواجـــبـــه المقدس و وطنـــه المفدى، خيانة كبرى، و خنجر مسمم في قلب المجتمع"[1]، و يتمـــاهى في مفهومه للشعر مع آراء المهجريـــيـــن و لاسيما الشاعرين جبران خليل جبران و ميخائيل نعيمة، فيتقاطع مع تصور مخائيل نعيمة للشعر على أنه النور تارة و الحق تارة أخرى، و يستعير له من الطبيعة أشباها و نظائر، فالشعر عنده هو البلبل في شدوه، و ورق الشجر في نوحه، و الماء في خريره، و الرعد في قصفه، فيعبر رمضان حمود عن هذا التصور ذاته بوساطة الشعر منشدا:

فهـذا خريـر المـاء شـعـر مـرتـل و هذا غنـاء الحـب ينـشـده الطيـر
و هذا زئير الأسد تحمـي عرينـهـا و هذا صفير الريح ينطحه الصخر
و هذا قصيف الرعد في الجو ثائر و هذا غراب الليل يطـرده الفجـر[2]

و لعل التوافق و الانسجام الرؤيوي الملاحظ بين الشاعرين، على بعد المسافة بينهما و قلة و صعوبة التواصل، يكون سببه اتحاد التوجه، و صدق التعاطي مع المذهب الجديد، و تقمص و استيعاب مبادئه من منابعه الأصلية، و من الرومانسية الفرنسية خاصة، حيث تجعل للقلب سلطة للعقل، و يكون التعبيـــر عن الانفعـــالات و العواطف الذاتية بأشكال فنية، و قوالب لغوية جديدة، هو السائد، و تتوالى آراء رمضان حمود حول الشعر القديم و تحيزه

[1]- المرجع السابق، ص130، هو تعليق على رأي رمضان حمود في وظيفة الشاعر ضمن كتابه بذور الحياة، مكتبة الإستقامة، تونس 1928، ص125-127.

[2]- رمضان حمود: بذور الحياة، ص104.

الجريء للشعر الرومانسي الجديد، معلنا عن ذلك صراحة و في قالب هزلي ساخر أحيـانا، فيعبر عن موقفه المتمرد شعرا مثلا قائلا:

أتـو بـكـلام لا يحـرك سـامـعـا (عجوز) له شطر و شطر هو الصدر

و قد حشروا أجزاءه تحت خيـمـة كـعـظـم رمـيـم نـاخر، ضمه القبـر

و زين بالوزن الذي صار مقتـفـى بقـافـيـة للشـعر يـقـذفـهـا البحـر

و قالوا وضعنا الشعر للناس هاديا و ما هو شعر سـاحر لا، و لا نـشـر[1]

و بالإضافة إلى آراء رمضان حمود التي توضح مفهوم الشعر عند الرومانسيين الجزائريين، هناك آراء أخرى تعكسها النصوص الشعرية، التي أنشأها الشعراء أمثال: مبارك جلواح العباسي و عبد الله شريط و الطاهر بوشوشي و محمد الأخضر السائحي و أحمد سحنون و أبي القاسم سعد الله... و غيرهم من الشعراء الذين تمكنت أيدينا من الوصول إلى أشعارهم.

[1]- المصدر السابق، ص103-104.

بنية النص الرومـانسي المجـدد و ظواهره الفنية

لم تكن للتيار الرومانسي في الشعر الجزائري الحديث نظرية قائمة بذاتها و فلسفة مؤسسة، بل كانت الرومانسية عبارة عن وعاء يعبر فيه الشعراء عما يعتلج في صدورهم من معاناة ذاتية، و لم يكن هذا التيار ثورة ضد التيار القديم، بقدر ما كان تعبيرا عن حب للحرية و شعور حزين بواقع مرير، و لذلك تميز هذا التيار في الشعر الجزائري الحديث بخصائص رومانسية، تبرز بحسب قربها أو بعدها من الرومانسية الغربية.

1. الوحدة الموضوعية و العضوية:

يـلاحـظ أن القصيدة الجزائرية الحديثة الرومـانسيـة، تنحو نحوا مغايرا لصنوتها القديمة، نحو مسايرة الأنماط و الألـوان الشعريـة الجديـدة، حيـث يأخذ بناؤها العام في كسب نوع من الترابط و التماسك بانفلات الشعراء من نظام القصيدة العمودية الصارم، و اتجاههم إلى كتابة المقطوعات متعددة القافية، التي مهدت السبيل لهؤلاء الشعـراء لإقحـام ذاتيـتهـم، التي سـاعدتهم على توفيـر الوحـدة في بناء القصيدة، حيث تظهر الوحدة العضويـة التي تعتبر "عملا فنيا ناميا يفضي كل جزء منه إلى آخره بالضرورة"[1] بصورة جلية في الشعر الرومانسي، مثلما نجد عند الشاعر الأخضر السائحي في قصيدة "هل أموت" التي يقول فيها:

كـم يجوب الفكر أدغال الدياجي تـائها في مهمه الأحزان بـاك
كـم يئن القلب من وقـع المـآسي أنـة الحـر تردى في الشـراك
كـم سـؤال حـائر ألـقـيـتـه، ظـل سـؤلا تـائـها عبر الليـالي
كـم شبـوح مفزعات، نـاقمات، سـاخرات، تتـراء في خيـالي
و لـم العـيش؟ و هذا الكون يبدو أبدي الليـل مـوؤود النـهار
فإذا ضـاق اتسـاع الكون حتى، فلقد آد صمودي و اصطباري
كل ما أدري، وجود ينـقضي في لحظـات، لا غـدي، لا أمنيـاتي
أي ذكرى؟ ضاع مني كل شيء، ضاع أمسي و تلاشى من حياتي[2]

الشـاعر الأخضر السـائحي هو أغـزر شعراء الجزائر ذاتية، و الأكثر تأثرا بالنزعة الرومانسية، حيث يتـضح هذا في أشعاره التي تخرج على بناء القصيدة القديمة، كما يتجلى هذا في نصه السابق الذي تتعدد فيه القوافي، و يظهر تأثره أيضا برائد الرومانسية في تونس أبي القاسم الشابي، كما نجده أيضا في قصيدة "أنا شاعر" يظهر هذا التأثر الذي

[1]- محمد مصايف: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1979، ص330.

[2]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص115، نقلا عن مجلة الفكر سنة 1954.

يسير بالقصيدة الجزائرية نحو الانفتاح على القوالب الجديدة التي تطفح بالإغراق في الذاتية، و التعبير عن المعاناة الشخصية، فتنتج عنها ضرورة الوحدة العضوية و الموضوعية، إذ يقول فيها:

ذاهل ينظر كالحالم في الأفق البعيد
وادع النظرة و البسمة كالطفل الوليد
في محياه سهوم، أو ظلال من جمود
و على عينيه نجوى، و ابتهال، و سجود
سكن الكون و أغفى كل شيء في الوجود
و هو سهران وحيد يرقب النجم الوحيد
هو ساهر[1]

يلاحظ اختفاء سمتا الخطابية و المباشرة، و تغدو القصيدة الوجدانية عبارة عن مناجاة روحية تسودها عاطفة هادئة.

2. اللغة الشعرية:

بظهور الاتجاه الرومانسي استطاع الشعراء أن يطورو اللغة الشعرية، و ينقلوها من التعابير التقليدية الصماء إلى لغة الأحاسيس و العواطف، فأثرت المعجم الشعري، و أضفت عليه المسحة الرومانسية التي تنفذ إلى أعماق الشاعر، فتعكس ذاتيته و تصور خلجات نفسه، و تعبر عما يعتلج فيها من عواطف، إذ استخدم الشاعر "معجما شعريا جديدا، يستقي من أجواء القصيدة الرومانسية التي تدور حول الطبيعة و مشاهدها و عوالم الذات و ما يضطرب فيها من أحاسيس و مشاعر"[2]، فهذه الأجواء الرومانسية جعلت الشاعر يعيش وضعا إبداعيا جديدا، انعكس بالدرجة الأولى على الأشكال الفنية، و ولد تعاملا خاصا مع التراكيب اللغوية، فأنتج جملا و مفردات جديدة، و مزاجا جديدا يستغل التآلف بين مدركات الحواس[3]، و مالت الأساليب و التعابير عن المباشرة الفجة الجافة، إلى لغة إيحائية أكثر تصويرا و عمقا، تحرك فكر المتلقي و وجدانه معا، كما تميزت بالسهولة الممتنعة و الرقة و الرشاقة، و من النماذج الشعرية التي يظهر فيها هذا المستوى اللغوي، قصيدة "ليلة

مع البحر" للشاعر أحمد سحنون، التي يقول فيها:

---

[1]- محمد الأخضر السائحي: ديوان همسات و صرخات، دار المطبوعات الجزائرية، الجزائر 1965، ص29.

[2]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص284.

[3]- المرجع نفسه، ص ن.

ماذا بنفسك قد ألم يا أيها البحر الخضم
نام الخلائق كلهم و بقيت وحدك لم تنم
فالكون في صمت عميـ ق غير صوتك فهو لم
و الجو صاف و الهلا م على جوانبه ابتسم
و أرى العبوس على محيـ اك الجليل قد ارتسم
و أرى أنينك صاعدا في الجوي يدوي في الأكم
و أراك كالمشفى يضـ ج من النسيم إذا ألم
فكأن موجك و هو يعـ ثر بالصخور قد اصطدم
دمع جرا من موجع فقد التصبر فانسجم[1]

كما يلاحظ في لغة الرومانسيين، بساطة التراكيب و سهولتها بعيدا عن التعقيد اللغوي الذي تحفل به القصيدة التقليدية، و لعل ذلك سببه هو رغبة الشعراء الرومانسيين، في إبلاغ معاناتهم الذاتية للقارئ، و الإفصاح عنها مباشرة دون تكلف أو تصنع، نجد هذا على سبيل المثال، في قصيدة "ذكريات" للشاعر محمد الطاهر بوشوشي حيث يقول:

قطعت الدجى آسفا و في مهجتي هاتف
و في كبدي كعبة بها خلدي طائف
محيا عليه امحت مني و هوى سالف
و روض به منتدى و ما يشتهي القاطف
تلاميعه كالرؤى و فيه شذا عارف
و في جوه نسمة و في دوحه عازف
فليس له مشبه و ليس له واصف
فنبهني خلسة صدى في السما قاصف
و أبصرت برق الدجى و فيه سنا راجف
و لما استضاء الوجود هما طرفي الواكف
و لاح إلي الزمان و تسياره الجارف
هو البحر في هوله أنا الزورق التالف
و حولي تسيل المياه و صوت لها عاصف

[1]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص105-106، نقلا عن مجلة الشهاب، ج9، م13/نوفمبر 1937.

و حولي تلـوح الحيـاة و إظلامـهـا العـاكف
أقـلـب طـرفي و مـا سـوايـا بـهـا واقـف[1]

تـرد الألفـاظ و التراكيـب سهـلة ميسرة، لكن وجه التصوير و البلاغة، يعول فيه الشاعر على الإيحاءات و الإشـارات التي تحملـهـا هذه الألفـاظ، النـابعة من التجربـة الشعريـة الشخصيـة و المعـانـاة النفسيـة الذاتيـة من ناحية، و العلاقات اللغوية الجديدة التي تقوم على مبدأ تراسل الحواس من ناحية أخرى، حيث نجد الشعراء يشمون الألوان، و يرون الموسيقى، و يتغنون بالمناظر الجميلة، كما هو وارد في المقطع السابق، و الاعتماد كذلك على الرمز و المجاز الذي يغني الشاعر عن اللغة المكثفة.

3. الصورة الشعرية:

سلك الشعر الجزائري الحديث طريقه نحو التطور، باطلاع الشعـراء على الطـابع الوجـداني الرومـانـسي فقد ظهـرت في الشعر الانـفـعـالات الموحدة مع الصـور التي تشكـل جزءا من ذاتية الشـاعر، و طغى الخيـال على القصيدة محتلا مكان المنطق و العقل. كما عرفت الصورة الشعرية تنوعا عند الشاعر الواحد، و تختلف بـاختـلاف مضمـون القصيـدة، و قد حاول بعض الشعراء الوجدانيين "استخدام علاقة جديدة بين الموصوفات لا على أساس المجاز القديم، و إنما على أساس تآلف مدركات الحواس كما تعرف عند الرمزيين، و شعراء جماعة أبوللو خـاصـة، و ارتبطت الصور الشعرية بمجـالات الطبيعة و مشاهدها و أصبحـت اللغة و الصورة تستـقي من هذه العوامل المتلائمة مع النزعة الوجدانية الذاتية"[2].

كما حاول هؤلاء الشعراء تجاوز الصور الشعرية التقليدية، فاستعاضوا عنها بتوظيف الأسماء و الأماكن التـراثـيـة، كرموز ذات حمولة مكثفة توحي بالكثير من المشاهد و الصور، التي تتولد عنها المعاني و الرؤى المقصودة، لكن القصائد الرومانسية لم تخل في مجملها من اللجوء إلى استعمال الصور التقليدية، التي لم تتعد التشبيه أو الإستعارة أو الكناية بمفهومها القديم، كما نجد هذا متجليا في قصيدة "الشكر للنعمى يوفرها" للشاعر محمد الأمين العمودي، حيث يقول:

حالي استحـال، و فاقني الأقران مذ غـاب عني الأصفر الرنـان
أخفى بنو غبـراء نور حقيـقتـي و أحبتي نقضوا العهود و خانوا
جار الزمان علي في شرخ الشبـا ب، و فاتني ما يـفـعـل الشبـان

---

[1]- المرجع السابق، ص104-105، نقلا عن مجلة الشهاب، ج1، م12/أفريل 1926.

[2]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص526.

أنا كوكب يمشي الهوينا حينما أم الكواكب عاقه الدوران
أو روضة: أدبي، و علمي و رقها و زهورها، و شمائلي الأفنان
الواكف الهتان ندى أرضها فاشتق منه الورد و الريحان
لما زهت بين الحدائق و ازدهت أخنى عليها الخادع الخوان
و تداولت عنها الرياح عواصفا فتمزقت، و ذوت بها الأغصان[1]

وظف الشاعر عبارة "الأصفر الرنان" مكنيا عن المال، و التشبيه البليغ في قوله "أنا كوكب"، فاستخدم هاتين الصورتين بالشكل التقليدي المعروف، الذي لم يستطع الشاعر الرومانسي التجرد منه، رغم اللغة التي تتدفق إحساسا ذاتيا يعلوه نبرة حزينة متأوهة، دالة على معاناة شخصية عميقة.

4. البنية الإيقاعية:

يرى شعراء التيار الرومانسي في الجزائر، ضرورة إعادة النظر في ماهية الوزن و الإيقاع، فحاولوا الخروج عن النظام الخليلي وزنا و قافية، و اعتماد إيقاع موسيقي جديد، ليس له علاقة بالأوزان المعهودة مثلما فعل الشاعر رمضان حمود و هو رائد في ذلك، من خلال أول قصيدة كتبها على النمط الإيقاعي الجديد الموسومة "يا قلبي" سنة 1928، معتقدا بأن الشعر الصادق لا يتقيد بالوزن و القافية[2]، فمزج في قصيدته بين الشعر المنثور الذي لا وزن له، و الشعر الموزون و المقفى، ثم سار على نهجه الشعراء الرومانسيون من بعده، و هم في محاولاتهم التجديدية يجارون محاولات شعراء المشرق العربي و الشعراء الأوروبيين، فأحدثوا تنويعات إيقاعية في النص الواحد، و حاكوا فن الموشحات، معتمدين على فواصل متشابهة كالأقفال في الموشح، ففي قصيدة "يا قلبي" تتغير القوافي و يتغير الوزن العروضي الخليلي، فنجده يطبقه نظريته التي دعى إليها فيقسم أسطره الشعرية على الطريقة التي يكتب بها الشعر سطورا متقابلة يفصل بينها بياض أو متتالية متساوية الطول تنتهي بقواف متراوحة لا أثر للوزن فيها إطلاقا حينا، أو مراعيا فيها الوزن حينا آخر، كما يظهر هذا في قوله:

أنتَ يا قلبي فريد في الألم والأحزان
ونصيبك من الدنيا الخيبة والحرمانْ
أنت يا قلبي تشكو هموماً كباراً وغير كبارْ
أنت يا قلبي مكلوم ودمك الطاهر يعبث به الدهر الجبّارْ
ارفعْ صوتَكَ للسماء مرّةً بعد مَرّه

[1]- محمد الهداي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص37.
[2]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص199.

وقل اللهمَّ إن الحياة مُرّه

أعنّي اللهم على اجتراعها

أُمددني بقوة فإني غير قادر على احتمالها

اللهم إنها مُرّة ثقيلة فليس لي فيها طريق[1]

يلاحظ من خلال هذا المقطع أن الشاعر رمضان حمود، قد تخلى عن الوزن و القافية المعهودين في الشعر القديم، كما نجده يمزج في قصيدته هذه، بين الشعر الخالي من الوزن و القافية تارة، و الشعر الموزون و المقفى تارة أخرى، "و هي محاولة تتسم بالتجريب و البحث عن إطار موسيقي غير الإطار التقليدي الصارم"[2]، و قد رافقت هذه التجربة المبتدئة الجريئة تجارب مماثلة أخرى، حاولت الخروج عن الطبيعة الموسيقية القديمة، و واصلت التجديد إلى أن ظهرت القصيدة الحرة، التي واكبت الإنتاج الشعري الجديد، الذي ظهر على يد رواده في المشرق.

[1]- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص200.

[2]- المرجع نفسه، ص201.

التيار الثوري في الشعر الجزائري الحديث

1. مفهوم الثورة في المخيال الشعري الجزائري:

ستظل ثورة التحريـر الجزائـرية (1954) حدثا مشهودا و ملحمة، نسجتها أنامل الفرد الجزائـري، بفكـره و إرادته و عزيمته و تضحيته، التي بلغت قمة العطاء، و سيظل الشعر الذي واكب هذه الثورة (أي الشعر الثوري) يدعو إليها و ينـافح عنها ضد خصومـها، فيرفض الوضع المتـأزم جملة و تفصيـلا، ولا يرضى بمنهـج الترقيـع و الترميم، و يتبرم بأنصاف الحلول حتى و إن أفضت إلى نتائج إيجابية، مادامت ستبقي على أصل الداء، فالقضاء على بعض من الضرر، لا يعني البتة القضاء عليه برمته، لأن الشاعر الثوري يؤمن مثلما يؤمن رجـل الثـورة تمـاما، بأن الثورة هدم جذري يعقبه بناء من جديد[1]، فلا تغيير إذا في ظل نظام أو سلطة مستبدة، هي سلطة الاستعمار الفرنسي، و من قراءتنا لنصوص الشعراء الجزائريين الذين سلكوا هذا المنهـج، و اقتـنـعـوا بهذا الطرح، سنجـد هؤلاء الشعـراء مسكونين بروح الثورة، بـل إنهـا تسري في خلدهم مجـرى الدم في العـروق و لا عجب، فإنهم تشربوا العلم و الأدب و الوطنية، ممزوجة بالثورة منذ نعومة أظافرهم، ما جعلهم يتيقنون، بأن العدو جاء ليقض مضجع الأمة الجزائرية، و بأن لغة الرصاص هي البلسم الشافي لجسم مترهل طاله المرض و أعاقه عن الحركة و التطور و النماء، و قد آن له أن يلفظ أدرانه و يلقي سقـامه، و هذا لسـان حال شـاعر الثـورة و الإصلاح محمد العيد آل خليفة يقول:

يا قـوم هبـوا لاغتنـام حيـاتكم فالعمـر سـاعـات تمـر عجالا
الأسر طـال بكم فطـال عنـاؤكم فكوا القيـود و حطموا الأغلالا
و الشعب ضح من المظالم فأنشدوا حـريـة تحـمـيـه و استـقلالا
لا أمـن إلا في ظـلال مـرفـرف حـر لنـا عـال ينـيـر هلالا[2]

أسهم الشعراء من خلال أشعارهم في إذكاء نار الثورة المسلحة على المستعمر، لأنهم لا يقتنعون بلغة الكلام في معالجة الوضع الجزائري المأزوم، و يجدون لغة السلاح هي أفصح لهجة، فينادون الشعب لسلوك منهج القـوة في عملية التغيير الجذري.

---

[1]- يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكرياء- دراسة فنية تحليلية، ط1، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر 1987، ص56.

[2]- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص45.

و من أجل إقناع الشعب بهذا المسعى، و تعميمه في كامل ربوع الوطن، يمتحون من عراقتــه و أصــالتــه و عقيدته آليتهم لبث الثورة في النفوس و تهييئها ليوم الفصل، الذي سيكون فاتحة خير و إشراقة للنعم، لأن الثورة هي الوسيلة الأنجع لتحرير الوطن، و آية ذلك قول شاعر الثورة مفدي زكرياء:

- نطق الرصــاص فما يباح كــلام و جرى القصاص فما يتاح مـلام
- السيف أصدق لهجة من أحرف كتبــت فكــان بيــانهـا الإبهــام
و النار أصدق حجة فاكتب بها ما شئت تصعق عندهـا الأحـلام
-و الشعب شق إلى الخلود طريقه فوق الجمـاجم و الخميــس لهـام
-لا النار لا التقتــيل يثـني عزمـه لا السجن لا التنكيل لا الإعدام[1]

لم يكن شعراء الثورة أناسا عاديين، إنهم كانوا يجمعون مع الشاعرية و الحس المرهف و الذوق الرفيع، حنكة السياسي و فكر الواعي المستنير و الوطني المتمرس، فكانوا يدركون أن مسار الوطنية ضريبته الدم، و أن أبواب الحرية الموصدة، لن يفتحها إلا الحديد و النار، و لذلك نجد نصوصهم الشعرية تطفح بالنزعة الثورية، التي كانت هي منطلق منظورهم في التغيير، و كثيرة هي المواطن و المناسبات الاجتماعية و الوطنية و السياسية، التي اغتنمها الشعراء لإعلان رؤيتهم و تصورهم الثوري نحو القضية الجزائرية، و الدعاية لهذا المنهج بأرقى ما تجود به قرائـحهم من أجل حمل الجزائريين، على الاقتناع بأنه أفضل السبل لنيل الاستقلال، و هذا الشاعر أحمد سحنون يــدعـو إلى الصمود و المقاومة دفاعا عن الكرامة مخاطبا فتية الضاد:

محمد ليــس يرضى بأن تعيـش شقيا
و إن قنعت بدون يكون منـك بريا
عار على جند طه ألا يكــون قويا[2]

و من بين ما أبدعه الشاعر مفدي زكرياء، النشيد الذي خص به الشهداء، الذي كتبه بتاريخ 29 نوفمبر 1957 في الزنزانة رقم 65 بسجن بربروس، هذا النشيد كان يمنح المساجين الذين اختاروا هذا الطريق و المقبلين على حكم الإعدام، القوة و الصمود، و منه قوله:

إعصـفي يا ريــاح و اقصفي يا رعــود
و اثخني يا جــراح و احدقي يا قيــود
نحــن قــوم أبــاة

[1]- مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص42-45.
[2]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص116، نقلا عن البصائر، ع14/نوفمبر 1947.

ليس فينـــا جبـــان
قد سئمنـــا الحيـــاة
في الشقـا و الهوان
لا نمـــل الكـفـاح لا نـــمـــل الجـهـاد
في سبيـــل البـــلاد[1]

يلاحظ كيف يطفح النص بثورية الشاعر و بمنهجه التحرري، الذي ألزم به نفسه، و وقف عليه إبداعه الشعري، غير آبه بمن يخـــالفه، و قد فضل "أن لا يخوض في بعض الخلافـــات الطبيعيـــة التي كـــانـــت تنشب بين المناضلين و الوطنيين حول المنهج، لا حول الغاية، فيلتف قلمه بها، بل ظل يتغنى للجزائر، من حيث هي وطن عظيم، و للثورة من حيث هي تاريخ وطني منعدم النظير، و للشهداء الذين كانوا يخرون في ســاح الشرف من حيث أنهم ضحوا بأنفسهم في سبيل رفعة الوطن و سؤدده... و يتبوأ مفدي زكرياء المنزلة الأولى في طبقة شعراء الثورة الجزائرية بلا منازع يذكر"[2]، فشعره هو الثـــورة، و الثورة هي شعـــره، الذي أسعـــر اللهب المقدس في دروب الجزائر الحالمة و أحراشها السكرى و رمالها العطشى و جبالها الغضبى، وقد أومأ الشـــاعر إلى الوظيفة التي أقصر عليها شعره، فقد وهبه للناس، يصور آلامهم و يرسم أفق أحـــلامهم، فيرضيـــهم و يـــرضـــي ضميره و إنسانيته و عروبته و ثورة بلاده، و لعل قسوة الجرح الجزائري، و فداحة المصيبة و المعاناة، كانت من وراء حرارة النغم الذي شدا به الشاعر، فقد كان شعره النضالي و الثوري ينزف أسى و لكنه يسمو شموخا، و تجده يستفز النخوة العربية بذكر الأمجاد التاريخية، التي خلدها أبطال العرب على مر العصور، فيلهب الحماس بقصائده الوطنية التي تصلح أحوال الجزائريين فتحثهم على الجهـــاد و الثورة على من طغى و تجبر و ســـامهم شتى ألـــوان العذاب، و عاث في أرضهم فسادا، و عبث بمقدساتهم، فكانت قصائده نارا تتأجج في صدور الثائرين فتزيدهم عزما على المضي في الثورة[3].

2. الشعر السجني الثوري:

حتى السجن بالنسبـــة للشـــاعر الثوري، لم يعد ذلك الفضـــاء المغلق، الذي يعيد للمتمرد رشده و يثنيه عن غيه، بل إنه مدرسة عليا يتلقى فيها المجاهدون الذين التفوا حول الثورة و آمنوا بها و اقتنعوا بدربها، تكوينا عاليا في التضحية و الفداء، و قد أشار مفدي زكرياء إلى ذلك في مقدمة ديوانه فيقول: "و مادام سجن بربروس هو معقل الثوار و مدرسة الرجال و مصنع الأبطال أصبح في نظر الشـــاعر حريـــا بنشيد يحمل اسمه كدليـــل على الوفاء

[1]- مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، ص84.
[2]- عبد الملك مرتاض: أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962)، ج1، ص428.
[3]- مفدي زكرياء: مقدمة ديوان اللهب المقدس، ص4.

منه، و كشهادة على ما كان يجري فيه من أجل الوطن المفدى، و في النشيد يعترف للسجن و يشهد له، على أنه مصنع المجد و رمز الفداء مادامت النخبة من أبناء الجزائر تحتمي بجدرانه"[1]، و قد عبر عن ذلك شعرا قائلا:

يا مصنع المجد و رمز الفدا يا مهبط الوحي لشعر البقا

يا معقل الأبطال و الشهدا يا منتدى الأحرار و الملتقى؟[2]

فإذا كان السجن في مفهومه العام وسيلة للترهيب و التعزير، و موهنا للقوة و العزيمة، و مذلا للعزة و الرجولة، في عرف المستعمر الجلاد، فإنه في عرف الشاعر و رفقائه الثوار، بمثابة المختبر الذي تحلل فيه مكونات الظاهرة الاستعمارية و مكامن قوتها و ضعفها، و هو المصنع الذي ينتج آليات و وسائل الثورة المضادة، التي احتضنها الشعب، و باتت واضحة للجميع بأنها الحل الوحيد، "و إن أكبر درس يتلقاه المرء في حياته، هو درس يتولى تدريسه بنفسه و يجني ثمرته بيده، و لهذا كان لهذه المدرسة شأن عظيم، إذ فيها يخلق الرجال الذين يقلبون صفحات التاريخ، و في ظلمة السجن يظهر بصيص الحضارة و التمدن، و من غرفاته تزرع الثورات، و في هدوئه تؤسس الدول و تهدم"[3]، و حول هذه المعاني ينشد محمد الصالح باوية قصيدته "أغنية للرفاق" فيقول فيها:

يا رفاقي، يا رفاقي في الذرى،

في السجن، في القبر، و في آلام جوعي.

قهقه القيد برجلي يا رفاقي،

حدقوا... فالثأر يجتر ضلوعي

يا جنون الثورة الحمراء يجتر كياني و مغارات ربوعي[4]

و من هذا المنطلق يتحول الشاعر السجين من مرحلة انتقاد الواقع إلى مرحلة وضع الخطط و التوجيه و القيادة، و ينتقل من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، و من مرحلة التأثر بالأحداث إلى التأثير فيها[5]، و تتحول رؤيته و فكرته إلى وعي، تسترشد به الجماعة حين يعبر عن طموحاتها و آلامها و معاناتها، فيستنهضها و يقودها نحو التغيير الذي يحقق الحرية و الاستقلال في النهاية بمساهمة الجميع. و يقتحم الفن الشعري و سحر الكلمة ساحة الوغى و عمق المعمعة، و يكون الشعر سلاحا نافذا حين لا تنفذ الأسلحة الأخرى، و

[1]-حواس بري: شعر مفدي زكرياء- دراسة و تقويم، ديوان المطبوعات الجزائرية، بن عكون، الجزائر، ص104.

[2]- مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، ص91.

[3]- محفوظ قداش و محمد قنانش: حزب الشعب الجزائري (1937-1939)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985، ص252-253.

[4]- محمد الصالح باوية: ديوان أغنيات نضالية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1971، ص41.

[5]- يحي الشيخ صالح: أدب المنافي و السجون في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر 1993، ص212.

يكون عدو الشعب عاجزا عن قهر الكلمة الحرة، حينئذ يصير السجن قيدا لا معنى له، و يصير السجان يومئذ سخرية يتفكه بها المساجين، و لعل قصيدة مفدي زكرياء: "زنزانة العذاب رقم 73"، صورة تفصح عن هذه المعاني حين يقول:

سيان عندي مفتوح و منغلق يا سجن بابك أم شدت به الحلق
أم السياط بها الجلاد يلهبني أم خازن النار يكويني فأصطفق
و الحوض حوض، و إن شتى منابعه ألقى إلى القعر أم أسقى فأنشرق
سري عظيم، فلا التعذيب يسمح لي نطقا و رب ضعاف دون ذا نطقوا
يا سجن ما أنت؟ لا أخشاك تعرفني من يحذق البحر لا يحدق به الغرق
إني بلوتك في ضيق و في سعة و ذقت كأسك، لا حقد و لا حنق
أنام ملء عيوني غبطة و رضى على صياصيك، لا هم و لا قلق[1]

و تتجلى ملامح المنظور الثوري الفلسفي في شعر الثورة و لاسيما عند مفدي زكرياء الذي يبلغ أوجه عندما يتحول السجن إلى رمز للتحدي "فيتجسد في أروع صوره، و أسمى معانيه، حين يصف الشاعر موقفه الرافض لألوان التعذيب الفظيعة التي يمارسها زبانية السجن على المساجين... إن التحدي العظيم يتمثل في الرضا المطلق بهذا المصير الذي آل إليه الشاعر، و كأنه على يقين بالانتهاء إليه... فهو مؤمن بأن السجن مهما يكن فضيعا قاسيا ليس بمستطيع أن يحقق مبتغاه منه لسبب بسيط و هو أنه إن استطاع حبس الجسد بين جدرانه العالية و أسلاكه المكهربة العاتية، فما هو بمستطيع أن يحبس الروح حين تنطلق في ملكوت الله سابحة لا تعترف بقانون الزمان و المكان، فهي متمردة عليه متجاوزة أياه"[2]، و هذا لسان الشاعر مفدي زكرياء يصرح بذلك قائلا:

و الروح تهزأ بالسجان ساخرة هيهات يدركها، أيان تنزلق
تنساب في ملكوت الله سابحة لا الفجر، إن لاح، يفشيها و لا الغسق[3]

و وفق المنظور ذاته يتحول السجن أيضا إلى رمز للتفاؤل و الثقة اللامتناهية في المستقبل الذي يحمل فوق جناحيه بشرى الانتصار، لأن الأمر لن يتسع إلا إذا ضاق، و أن العسر يأتي بعده اليسر، لذلك لم يكن يكترث حتى للموت، و لم يعترف به معيقا لاستمرار الحياة، "و من أروع مواقف التفاؤل المستمد إشعاعه من الإيمان، ما سجله في قصيدته المؤثرة التي يصف فيها صعود أول شهيد جزائري إلى المقصلة في سجن بربروس،

---

[1]- مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، ص20-21.

[2]- المصدر نفسه، ص21.

[3]- المصدر نفسه، ص ن.

هذه القصيدة التي تجلت فيها روحه المتفائلة من خلال لغتها و صورها، ففي قصيدة "الذبيح الصاعد" يفجر أروع مناظر الفرح و الاستبشار من خلال أفظع المواقف هولا و حزنا"[1]، يقول:

قـام يختـال كالمسيـح وئيـدا يتهـادى نشـوان يتلو النشيـدا
باسم الثغر كالملائك أو كالطف ل يستـقبل الصبـاح الجديـدا
شامخـا أنـفـه جـلالا و تيـها رافـعـا رأسـه يناجي الخلـودا
رافـلا في خـلاخـل زغردت تم لأ مـن لحنـها الفضاء البعيـدا
حالمـا كالكليـم، كلـمه المجـ د فشـد الحبـال يبغي صعـودا[2]

يـلاحـظ من خلال هذا النص اهتمام الشاعر ببث الحماسة الوطنية في نفوس المجاهدين المسجونين عامة، و لاسيما الذين يتقدمون إلى الموت، ليوقنوا بأن بذل النفس هي أسمى أمنية يتمناها كل جزائري ثوري آمن بخط الثورة، الذي لا يخلو من المكاره في سبيل الاستقلال، فيصير مجندا و هاد للأرواح المتهافتة على مذبح الحرية.

3. الشعر الثوري وسؤال المرجعية:

يسهم الشاعر الثوري كذلك في تعميق و توسيع الرؤيـة الثوريـة بـبـعدها الفلسفي لتشمل كـافة أفراد الشعب،و من خلالها يشعرون بأن حل الأزمة الجزائرية لا يكون إلا بالتغيير عن طريق القوة[3] و الكفـاح المسلـح و الشهادة، لأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فتصبح مبدأ كل الجزائريين، يستقونه من رصيـدهم العقـدي و التاريخي، فيدعو الشـاعر صـالح خبـاشة طلاب العلم إلى مدرسة القتـال من خلال قصيدتـه "أخي الطالب" قائلا:

- ليس الشهـادة صفحـة نحظى بها إن الشـهـادة موتنـا شـهـداء
لتكن معـاهـدك الجبـال فدرسها أجـدى و أرسـخ في الحياة بقاء

-ليس البـلاغة أن تشقـشـق هادرا كـلا و لا أن تحـسـن الإلـقاء
فالبس لسلمك لبسه و ألبس لحر بـك درعـه فـتـحيـر البـلغاء[4]

و في السياق الفكري و الرؤية ذاتها يقول مفدي زكرياء:

---

[1]- محمد ناصر: مفدي زكرياء شاعر النضال و الثورة، ط2، نشر جمعية التراث، غرداية، الجزائر 1989، ص65.

[2]- مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، ص9-10.

[3]- يحي الشيخ صالح: أدب المنافي و السجون في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي، ص212.

[4]- صالح خباشة: ديوان الروابي الحمر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1970، ص20-21.

و حدثــنــا عن يــوم بــدر محــمــد فــقــمــنـــا نضـــاهي في جزائــرنا بــدرا
تبـــاركــت شــهــرا بالخــوارق طافحا و سبحان من بالشعب في ليله أسرى
فكم كنــت يا رحمن في الشــك غارقا فـآمنـت بالرحمـن في الثـورة الكبرى
و كم كنت بين الكاف و النون حائرا و مذ قلتـها يا رب جنـبـتـني الكفرا
و لــبـــاك شـعــب كــاد يفــقــد ظنه بـــوعـدك لـولا أنــه يحـفـظ الذكرا
و يقــرأ في التــنــزيــل عنــد صلاته بأنــك بعد العـســر تـغــمـــره يسرا
و أشربتـه حب الشهـــادة فـــارتمـى على غمـرات المـوت تلهبـه الذكرى
و طــالـبـــتــه بالمــهـر، إن رام عــزة فـأســرع من أرواحــه يـدفـع المـهـرا[1]

وتبرز ملامح و معاني التغيير عند شعراء الثورة، من خلال مسارهم الثوري الذي يتحول إلى المواجهة الحقيقة للدخيل و إرجاعه من حيث أتى، رغم عناده و غطرسته، "فيشكل ذلك عندهم فلسفة واضحة عمـــادهــا القوة و الإرغام لا يفتأون يبثونها في أشعارهم بصور مختلفة، لكنها جميعا تنضح بالقوة، و أخذ الحقوق عنوة و قهرا بعيدا عن الخطب و الكلام"[2]، و في شعر أبي القاسم خمار ما يشي بذلك من قصيدة "صرخة الجبل"، حين يقول:

الصخر أنسب عند الذود متكأ و السيف أبلغ في الهيجاء من قلم[3]

و يقول أبو بكر رحمون:

شكونا الظلم بالأقلام دهرا فلم نظفر من الشكوى بزاد
و لم نر للتظــلم من جواب سوى إغراقهم في الاضطهاد[4]

وباللهجــة ذاتــها يفصح الشاعر صالح خرفي عن عجز الكلمة وحدها عن إزالــة أسباب الظلم، فيـعـلـن عن حتمية اجتماع المدفع و الخطبة معا لصد هذا الظلم في قصيدة "الجزائر الثائرة" فيقول:

من منبر الأوراس حي المجمعا فالضاد و الرشاش قد نطقا معا
لم ترو غلتنا المنابر فارتـضيــ نا للخطـابة أطلســا متــمنــعا[5]

و الذي يجبر الطغاة المحتلين على الرضوخ و الامتثال هو الرشاش و النار، فكلاهما مقدس في فلسفة الثورة عند الشعراء الجزائريين، كما في قول مفدي زكرياء:

---

(1)– مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، ص309.

(2)– يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص91.

(3)– أبو القاسم خمار: ديوان ظلال و أصداء، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1970، ص93.

(4)– صلاح مؤيد: الثورة في الأدب الجزائري، مكتبة الشركة الجزائرية و مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1963، ص40.

(5)– صالح خرفي: ديوان أطلس المعجزات، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1982، ص121.

ويح القوى من الضعاف إذا هم يوم القصاص، على الطغاة تنمروا
و إذا الجزائر بالسلاح استعبدت فمصيرها بسلاحها يتقرر[1]

و في قوله أيضا:

و تكلم الرشاش جل جلاله فاهتزت الدنيا و ضج النير
و تنزلت آياته لهابة لواحة أصغى لها المستهتر
و النار للألم المبرح بلسم يكوى بها العظم الكسير فيجبر
و النار في مس الجنون عزيمة يصلى بها المستعمر المتكبر
و الغاضبون العابثون إذا هم سمعوا الحديث من الحديد تدبروا[2]

وبمثل هذا النفس الشعري القوي قوة الرشاش تتدفق حمم المعاني والأفكار الحارقة يقذف بها شاعر الثورة جبروت المستدمر الفرنسي من جهة ،ويشحذ بها من جهة اخرى همم المناضلين المرابطين في الصياصي والثغور.

الخاتمـــة

وفي الختام نود أن نشير إلى أن مسحة الألم و الحزن التي تلف جسد القصيدة الثورية، و تصطبغ بها مضامينها، فتحول دون بروزها بوضوح فوق سطح النص تلك اللغة الصاخبة و المجلجلة التي تتناسب مع الانفعالات الثورية، فتغطي أحيانا نزعة الألم و الغربة التي يعانيها هؤلاء الشعراء، لكنهم كثيرا ما يكبحون هذه العواطف الحزينة، لأن النبرة الثورية تعيقهم عن التعبير عنها صراحة، إلا أن مسحتها لا تفتأ تبرز كميزة ثانوية ترافق الميزة الرئيسة "فالثورة التي تقوم على عقيدة ذات مبدأ صارم لا ترضى إلا بالموت استشهادا أو بحياة العزة و الكرامة، و لا منزلة (عندهم) بين المنزلتين، و التي تقوم على عوامل كثيرة و خطيرة تدعو كلها إلى التفاني و الاستماتة في سبيلها، ثم تختار لبلوغ هدفها طريق القوة و السلاح، و تقديم الفداء من الدماء و الأرواح ثم لا ترضى – فوق ذلك– بأنصاف الحلول، و تأبى إلا أن تبلغ هدفها كاملا غير منقوص، حتى تصل إلى غايتها الأخيرة... إن ثورة تلك حقيقتها، و هذه منطلقاتها و أسسها، لا يشك أحد في أنها ستقطع رحلة طويلة و شاقة، رحلة مليئة بالآلام، تنتظرها في كل خطوة تخطوها، و أتعاب تعترضها في كل نفس من أنفاسها، مما تجعل دليلها الذي

[1]– مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، ص138-139.
[2]– المصدر نفسه، ص134.

لا يفارقها"[1]، و بديهية متأصلة في كينونتها، فيصير الألم في حد ذاته خادما للثورة، و عاملا من عوامل اشتعالها، و محركا يمنحها الشحنة للاستمرارية و مواصلة الطريق إلى نهايته.

[1]- يحي الشيخ صلاح: شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص103.

﴿المصـادر و المـراجع﴾

أولا: المصـادر

- الأمير عبد القادر: الديوان، جمع و تحقيق- شرح و تقديم العربي دحو، مؤسسة تالة، الجزائر 2007.
- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، دار الجيل، بيروت، لبنان 1974.
- أبو القاسم خمار: ديوان ظلال و أصداء، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1970.
- صالح خباشة: ديوان الروابي الحمر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1970.
- صالح خرفي: ديوان أطلس المعجرات، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1982.
- صلاح مؤيد: الثورة في الأدب الجزائري، مكتبة الشركة الجزائرية و مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1963.
- رمضان حمود: بذور الحياة، مكتبة الإستقامة، تونس 1928.
- محمد الأخضر السائحي: ديوان همسات و صرخات، دار المطبوعات الجزائرية، الجزائر 1965.
- محمد الصالح باوية: ديوان أغنيات نضالية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1971.
- محمد العيد آل خليفة: الديوان، المؤسسة الوطنية للكاتب، الجزائر 1992.
- محمد الهادي الزاهري السنوسي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، إعداد و تقديم عبد الله حمادي، دار بهاء الدين للنشر و التوزيع، قسنطينة، الجزائر 2007.
- مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.

ثانيا: المراجع

■ الكتب:

- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، معهد البحوث و الدراسات العربية، القاهرة، مصر 1977.
- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.
- أبو القاسم سعد الله: محمد الشادلي القسنطيني (1807-1877)- دراسة من خلال رسائله و شعره، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1974.
- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب، دار التنوير للطباعة و النشر، بيروت، لبنان 1983.
- حسن حنفي: قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر 1988.

- حواس بري: شعر مفدي زكرياء- دراسة و تقويم، ديوان المطبوعات الجزائرية، بن عكون، الجزائر.
- ربيعي محمد علي عبد الخالق: أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر 1989.
- زكي الميلاد: من التراث إلى الاجتهاد- الفكر الإسلامي و قضايا الإصلاح و التجديد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 2004.
- شكري محمد عياد: موسيقى الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر 1968.
- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
- صالح خرفي: المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1983.
- صالح خرفي: عمر بن قدور الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام- قسم من مشاهير الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1974.
- عبد الرحمن الجيلالي: محمد بن أبي شنب- حياته و آثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.
- عبد القادر جغلول: تاريخ الجزائر الحديث- دراسة سوسيولوجية، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت، لبنان 1983.
- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين و دورها في تطوير الحركة الوطنية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1981.
- عبد الكريم بوصفصاف و آخرون: معجم أعلام الجزائر، منشورات مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة الإخوة منتوري.
- عبد الله الركيبي: الأعمال الكاملة، دار الكتاب العربي، الجزائر 2011.
- عبد الملك مرتاض: أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962)، مطبعة دار هومة، الجزائر 2003.
- عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1982.
- عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1997.
- عمر بن قينة: عبد القادر المجاوي-حياته و آثاره-شخصيات و ذكريات، دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1983.
- عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث- تأريخا..و أنواعا، و قضايا..و أعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995.
- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، لبنان.

- محفوظ قداش و محمد قنانش: حزب الشعب الجزائري (1937-1939)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985.
- محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.
- محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1983.
- محمد صالح الجابري: الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل للطباعة و النشر و التوزيع، 2005.
- محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة، دار اليقظة العربية، دمشق، سوريا 1965.
- محمد عمارة: الجامعة الإسلامية و الفكرة القومية عند مصطفى كامل، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان 1976.
- محمد مصايف: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1979.
- نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984.
- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث- إتجاهاته و خصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1980.
- محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية-نشأتها، تطورها، أعلامها (1903-1931)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1978.
- محمد ناصر: مفدي زكرياء شاعر النضال و الثورة، نشر جمعية التراث، غرداية، الجزائر 1989.
- يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكرياء- دراسة فنية تحليلية، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر 1987.

- **رسائل جامعية:**

- يحي الشيخ صالح: أدب المنافي و السجون في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر 1993.

- **مجلات:**

- مجلة الثقافة الإسلامية، ع2005/1، الجزائر.
- مجلة المجاهد الثقافي، ع1971/17، الجزائر.
- مجلة الشهاب، ج9، م10/أوت 1934، قسنطينة، الجزائر.

- مجلة المنار، م22/6 أكتوبر 1903، مطبعة المنار، مصر.
- مجلة الأصالة، ع52، الجزائر 1987.
- مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، ع5/ماي 2005، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر.
- حولية المؤرخ، ع2005/5، دار الكرامة للطباعة و النشر، الجزائر.

- **جرائد:**

- جريدة البصائر، ع17/531 جانفي 2011.
- جريدة الفاروق، ع9/81 أكتوبر 1914.

﴿فهرس الموضوعات﴾

العنـــوان	رقم الصفحة
مقدمـــة	**3**
مصـادر الشعر الجزائري الحديث	**5**
1. التركيبة السوسيولوجية للمجتمع الجزائري	**5**
1.1. جماعة المحافظين	**6**
2.1 . جماعة النخبة	**7**
2. الوضع الاجتماعي	**9**
3. الوضع الثقافي	**10**
حالة الشعر الجزائري خلال القرن التاسع عشر	**12**
1. تحديد زمن الحداثة	**12**
2. حالة الشعر و روافده	**13**
3. الأمير عبد القادر.. الشاعر الإحيائي	**16**
عوامل اليقظة و النهضة الفكرية في الجزائر	**22**
تمهيـد	**22**
1. حركة الجامعة الإسلامية	**23**
2. مساندة ليبيا ضد الاحتلال	**24**
3. الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918)	**24**
4. حركة الأمير خالد	**25**
5. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين	**26**
6. دور العلماء المصلحين	**29**
1.6. الصحفي الأديب عمر بن قدور (1886 - 1922)	**29**
2.6. العالم المصلح عبد القادر المجاوي (1848 - 1914)	**31**
3.6. الشيخ عبد الحليم بن سماية (1866 - 1933)	**32**
4.6. العلامة الشاعر محمد المولود بن الموهوب (1866 - 1935)	**33**
5.6. الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوي (1850 - 1942)	**33**

6.6. محمد بن أبي شنب (1869 - 1929)	**34**
7.6. عمر راسم (1884 - 1959)	**35**
8.6. محمد بن رحال (1857 - 1928)	**36**
7. شيوع الطباعة و انتشار الصحافة	**37**
8. النوادي و الجمعيات الثقافية	**40**
نهضة الشعر الجزائري في القرن العشرين	**42**
تمهيـد	**42**
وضعية الشعر في بداية القرن	**42**
تيـارات الشعر الجزائري الحديث	**47**
تمهيـد	**48**
التيـــار الإحيـائي المحـافظ	**50**
تمهيـد	**50**
بواعث التيار الإحيائي المحافظ	**50**
1. التحصيل العلمي و المعرفي	**51**
2. القصيدة الإحيائية المشرقية	**54**
3. المفهوم القديم للشعر و وظيفته	**56**
بنية النص الإحيائي وظواهره الفنية	**59**
1. الوحدة الموضوعية و العضوية	**59**
2. اللغة الشعرية	**60**
3. الصورة الشعرية	**61**
4. البنية الإيقاعية	**63**
التيـــار الرومـانسي المجـدد	**64**
تمهيـد	**64**
بواعث التيار الرومانسي	**65**
1.حركية الواقع السياسي و الاجتماعي	**65**
2.الاحتكاك الثقافي	**66**
3.مفهوم الشعر عند الرومانسيين	**67**

بنية النص الرومــانسي المجـدد و ظواهره الفنية	**70**
1. الوحدة الموضوعية و العضوية	**70**
2. اللغة الشعرية	**71**
3. الصورة الشعرية	**73**
4. البنية الإيقاعية	**74**
التيار الثوري في الشعر الجزائري الحديث	**76**
1. مفهوم الثورة في المخيال الشعري الجزائري	**76**
2. الشعر السجني الثوري	**78**
3. الشعر الثوري وسؤال المرجعية	**81**
الخاتمة	**83**
قائمة المصادر والمراجع	**85**
فهرس الموضوعات	**89**